الساحلية



جمال الخياط



روايـــــة

الساحلية

جمال الخياط

نوارة هي الحلم الذي لا يزال يؤرقني

ثمة موجة سوداء تلاحقني

« كافكا »

صباح ناحل
والباب نصف موارب
والساحلية ترتدي غيم القميص
وأرتدي أرقي
تهاتفني
ـ انتظر
سأجيء بعد هنيهة
إني أنسق في الأواني ضحكتي
وأرتب الأمواج في المعطف

عبد المحسن يوسف
السعودية



الحكاية

هذه حكايتك الرمادية...

هذه معجزتك الرمادية الممتدة سنين عجافاً...

هذه شائعتك التي روجت لطغيانها في ساعة محمومة بالشوق وموصومة بالتعب والجدال...

هي فعلاً حكايتك السمراء...

هي فعلاً حكايتك السمراء التي لن يصدقها بشر غيري. سوف

ننسحب ـ أنا وأنت ـ تاركين للحكاية السفيهة حرية الثرثرة، وهوس الغثيان. سنراقب معاً ـ من غير انفعال ـ صخب غرائزنا المجنونة، وتوتر عقولنا لانحرافات القلب، والمخبوء المبهر من شتى الأجناس.

هذه حكايتك الرمادية...

هذه حكايتك الرمادية، المجنونة. لنتفق أولاً على أننا لا نهلوس. لنتفق قبل البدء على أن ينصت أحدنا للآخر. لنتفق قبل فوات الأوان، حيث لا ينفع الندم، ذلك قبل أن تلوث كلمة «النهاية» السوداء مساحة الشاشة البيضاء.

هي النهاية التي نترقبها...

هي النهاية التي نترقبها أنا، وأنت، وشخصيات الحكاية المعروفون منهم والمجهولون، وجمهور الزمن الأغبياء، وصفوة رجال التاريخ، وكتب المعجزات، والإنس، والجن، ومعشر الفقراء، والبحارون المعوزون، والمضربون عن التاريخ من العمال والطلاب، والفاشلون في أعمالهم، والمراهقون الجدد الواقعون في شباك القلب، والمتأزمون في حياتهم التي يحسونها تافهة، والخريجون الكثيرون الذين وجدوا أنفسهم فجأة بعيداً عن آمالهم، وأتباع لا يحصون عدداً أرادوا أن يكونوا بإرادتهم الجزء الفضولي من الحكاية الرمادية.

هي الحكاية...

حكايتنا أنا وأنت...

الحكاية السرمدية التي لا تجوز ملكيتها لأي طرف. هي قصتنا التي تؤرقنا. ما رأيك لو نتركها تثرثر؟ هكذا دون حسيب أو رقيب فلتعربد. ما رأيك؟ لنتلقي القيء القابع في القاع، لعلنا نصحو معاً في الغيبوبة ونغادر

الدوامة المخيفة سالمين. وحتى ذلك الوقت ـ النهاية ـ لنتفق بأن الحكاية مجرد أكذوبة، أو حلم مزعج.

... هذا ليس إسلوب خداع

... إنها قواعد اللعبة

لعبتنا المخطط لها بعناية فائقة.

الامبراطورة

الظلام...

الظلام سيد الأشياء...

ظلام الليل هو السيد الحقيقي، وعندما يهبط من عربته السماوية المتلألئة يستل سهماً نارياً. يشعله بالخوف المسموم ويصوبه نحو قلبي بدقة. ويمضي القاتم يمارس طقوسه الروتينية متلذذاً بابتلاع نتف شمسية هاربة من سطوته.

منذ كنت صغيراً وهو يمارس معي لعبته القذرة. أدمنا اللعبة سوياً

ومع ذلك لم نملها ـ نحن الاثنين معاً ـ وهذا شيء مذهل.

الخوف من الظلام...

من يصدق هراءً معتقاً كالذي يستبيح في ذاكرتي. من يصدق أن فحلاً مثلي وقد تخطى حاجز الثلاثين من عمره لايزال يخاف من الظلام كما لو أنه يكتشفه لأول مرة. ما أعاني منه ليسّ قلقاً على الإطلاق، أو حالة مرضية من سلالة التهيؤات، أو جيشا من الوساوس احتل الدماغ وبات يسرح في حقوله الخصبة يلون مشاهد مرعبة ومبعثرة.

أنا مرتعب من مشاهد حقيقية تلاحقني عندما يخيم الظلام. عفواً، لأكن صادقاً معكم وأعترف بأن المشاهد لا تلاحقني وإنما أنا الذي أنساق خلف رعبها، واضعاً نفَسي الضعيفة وجهاً لوجه أمام بهرجتها. في الظلمة اللعينة تطفو المشاهد كالجثث. في الظلمة تحلو الإثارة فتغدو إدماناً قسرياً، شراكاً لافكاك منه. الظلمة، وحدها من تهييء خشية مثالية لتلك المرأة التي تنتظر قدومي عندما يحل الظلام.

عندما يحل الظلام تظهر تلك المرأة. جالسة كإمبرطورة على الكرسي المهترىء بكامل زينتها، واضعة ساقها اليمنى على اليسرى بكبرياء. تحدق باتجاهي وكأنها تستجدي اقتراباً. من حقي أيتها الغامضة أن أبخل عليك بهذا الاقتراب الذي قد يكون ثمنه غالياً، فأنا لا أعرفك، والتجارب علمتني أن أتجنب مكر النساء، وملاطفة الغرباء.

لا أستطيع أن أتبين وجهك الذي تغلفه الظلمة. جبني يترصد لخطواتي. اعذريني يا امرأة الليل الجميلة على تمنعي فأنا لا أعرفك ولا أتذكر بأنه سبق أن التقيت مع امرأة في حياتي تحمل صفاتك الخرافية .

أعترف أنني أسأت الظن بك في البداية. ساورني شك محموم، ظننتك جنية تعلقت في حبال هواي الإنسية. لم تكوني موضع طمأنينة في البداية. مثل ما أخشى الظلام أخشى أيضاً الجنيات.

لست متأكداً من أنك المرأة التي أبحث عنها، المرأة التي هجرت حياتي فجأة وتركتني لغزاً مثيراً للكثيرين من حولي. المرأة الوحيدة التي أحبها بصدق.

يا امرأة الليل البديعة لا تتوقعي أن أسلمك نفسي ببساطة. يا امرأة الظلام لا تنتظري أن أقدم لك ولائي في العتمة التي أخشاها حتى الموت. يا امرأة الليل هذه العتمة حاجز لن يجمعنا فلا تنتظري المستحيل.

جالسة كإمبرطورة...

معتدة بجلالها. جالسة على الكرسي الخشبي المهترىء تغلفها هالة شديدة الضياء تفضح المكان من حولها، وتحافظ على عتمة جسدها.

هذا المكان لا يليق بأميرة مثلك. مكانك المتعفن يليق بالكلاب الضالة وحليفاتها الفئران العمياء. أستغرب كيف تتربعين بكامل زينتك على كرسي حقير لا يناسب هيبتك وحضورك الموقر، وفي خرابة نتنة تحاولين اصطياد شاب يكاد قلبه يتوقف من شدة الخوف.

... وأترك للسؤال حرية أن يصفعني كي أستفيق

ماذا تفعل أميرة في خرابة؟

في المساءات المعتمة فقط تتزين وتتربع على عرشها لتستقبلني وأنا قادم إلى منزل العائلة الموغل في الأزقة. أنسى الرطوبة الخانقة وأنسى وحشة المكان، وأتغافل عن العتمة ونباح الكلاب البوليسية، وأفكر طوال الطريق في تلك المرأة التي يبدو أنها عشقتني.

وحدي من يشاهدها...

وحدي من يقدس هيبتها...

وحدي من يكن لحضرتها كل التبجيل والاحترام...

ماذا تريد مني إمبراطورة الليل؟ سؤال قاتل يؤرقني كلما قضمت العتمة مؤخرة النهار.

لابد لصمتي من نهاية. من غير المعقول أن تظل المشاهد الزاهية حبيسة جمجمتي. ليس الحديث عنها ما يشغلني، ما يهمني حقيقة أن يرى الغير إمبرطورتي المبجلة، أن ينبهروا بها مثلي، وأن لا يصدقوا ما يرونه بأعينهم الجاحظة، وأن يجروا أكواماً بشرية أخرى لتشاهد مراسيم تنصيب إمبراطورة الليل. عندها فقط سأرتاح، وفي تلك اللحظة النورانية الجليلة سأفكر في الخطوة القادمة.

ولكن أليس ما أطلبه وأتمناه حلماً بعيد المنال؟ يقيناً هو كابوس يؤرق ولا يتحقق. لا أدري؟ ولكنني حتماً سأصاب بالحمى والهذيان إذا استمرت المشاهدة آخذة بحرارتها المتصاعدة.

آه... وحدي من ينطحن في هم أرق إمبراطورة الليل.

الغريب أنه لا أثر لها عندما تزف الشمس في موكب النور. يبقى الكرسي وحيداً، ساخناً، بائساً بين كومة الحجارة، ونثار العلب المعدنية المتنوعة، الفارغة. علب التونة، البيرة، الأجبان، والمشروبات الغازية. وحيداً بين مخلفات الثياب وقطع الزجاج المكسور، وأعواد الثقاب المحروقة، وبقايا السجائر. لابد لهذه الإمبراطورة غريبة الأطوار من عرش آخر، عرش نهاري بهيج. عرش تتربع عليه في عالم بعيد لا تريدني أن أراه. لماذا؟ سؤال جديد بزغ للتو بالتأكيد لن أجد له جواباً.

هناك حتماً ضحية تتخبط في غثيانها على شاكلتي تمتحن الأسئلة في الجمجمة، وتفشل مع كل محاولة.

يغريني هذا الكرسي الحقير بالاقتراب، ولا أتحمس بما فيه الكفاية. أظل محتفظاً بمنطقة أمان. المدهش أن هناك منطقة خالية من الأوساخ حول الكرسي لمسافة ذراع دائرية. منطقة نظيفة جداً من الرمال الصفراء الناعمة. وثمة أثر واضح للماء في طور تبخرد الأخير حول الحلقة من

الخارج. وثمة دخان باهت يحاول التملص من عيوني الفضولية. أغلب الظن أنه رافق هبوط الإمبراطورة الليلية.

وأخذت أتساءل...

هل ما شاهدته من بصمات وأدلة بقايا تنصيب ملكي؟ هل هي طقوس الرحيل إلى تلك البقعة البعيدة؟ صحيح أن جسدها يغيب عن المكان ولكن رائحتها اللزجة تعطر عفنة الخرابة.

أخاف أن تخطفني إلى مملكتها السماوية. تستطيع أن تفعلها وهي متربعة على كرسيها السحري. أخاف أن تنتقم مني وتعاقبني على ترددي في قبول دعوتها المريبة.

وكطفل صغير تبولت في ثيابي من غير شعور. اكتشفت أن الخرابة تحولت إلى جهنم مصغرة. أحسست كأن الإمبراطورة غاضبة، وفي أوج انتقامها. كأنها استلت جسدي وأحرقته، ثم أعادته فحمة هشة.

هرولت...

هرولت كما لم أهرول في حياتي قط، كما في طفولتي رافعاً ثوبي إلى مستوى خاصرتي. ركضت بجنون المسافة القصيرة حتى دخلت بيت العائلة. كلهم هناك مجتمعون في مجلسهم الأسبوعي المسائي. جميعهم انبهروا وهم يشاهدونني لأول مرة في حالة مجنونة. لا أدري ماذا حدث بعد ذلك فقد فقدت الشعور بالزمان والمكان، وسقطت.

سقطت...

سقطت في حالة شديدة الرثاء...

تلك لم تكن البداية. على الأقل من جانبي. لم أجرؤ على إخبارهم بالحقيقة ليقيني بأنهم لن يصدقوني. كلمة واحدة وسأجدهم يودعونني ـ دون أدنى تردد ـ مصحة الأمراض العقلية. أعرفهم جيداً ولست ببعيد عن شعور بعضهم تجاه بعض، وتجاهي خاصة.

كنت غائباً عن الوعي. فقدته رغماً عني. كنت أفكر في سبب آخر غير الحقيقة يقشع عن قلوبهم الحاقدة غيم المفاجأة المذهلة. كنت ـ رغم همي ـ أحاول الهروب من خلق مشكلة جديدة تضاف إلى قائمتي، ويجب علي أن أنجح حتى لا تتضاعف مصيبتي.

وجدتها في خوفي المعتق من الكلاب. هذا هو الحل... هربت من أنياب أحدهم. سأقول إنه دهمني في أول الزقاق وهربت منه بالكاد. سأقول إنه تركني في آخر لحظة ليلحق بقطة شيرازية، شهوانية. أعرف جيداً أنه عذر واهٍ، وسيكتشف أخي الأكبر الكذبة عندما ينظر في عيني.

أصبحت في حالة تتأرجح بين الصحو والغيبوبة. أنظر إلى الجماعة وهم يتفحصون جسدي قطعة، قطعة. أيقظوني بصعوبة بعد أن وضعوا تحت أنفي الأفطس قطعة قطنية مبللة بعطر نسائي رخيص تستخدمه أمي بعد خروجها من المطبخ، واستحمامها.

كانوا حولي يشكلون دائرة خرافية، أمي الخائفة، وأبي الحانق، وأخوتي الستة المتفاوتو المشاعر بين قلقهم على حالي وعدم مبالاتهم، وامرأتان من الجيران هرعتا في الحال عندما أطلقت أمي عويلاً انتحارياً.

كنت خائفاً من التبريرات لذلك اكتفيت بالصمت ورحت أحدق فيهم بتوتر. كانوا يتكلمون بانزعاج يشتتني، وبصوت عال على ما يبدو، رغم أنني كنت لا أسمعهم على الإطلاق. أرى شفاههم تقذف كلمات صاروخية لكنها لا تخترق طبلة الأذن.

أحسست بإمبراطورة الليل ترفرف فوق رأسي، فوق الجميع. نظرت إلى السماء فوجدتها تتربع في الهواء متكئة على كرسيها الحقير وتحرك بيد أخرى مروحة يدوية مذهبة صوب وجهي. أحسست بهواء بارد له فعل الطمأنينة في قلبي.

صباح ناحل
والباب نصف موارب
والساحلية ترتدي غيم القميص
وأرتدي أرقي
تهاتفني
ـ انتظر
سأجيء بعد هنيهة
إني أنسق في الأواني ضحكتي
وأرتب الأمواج في المعطف

عبد المحسن يوسف
السعودية

وها قد جاءت الفرصة ولكنني في وضع لا يسمح باجترار سعادة إمبراطورة الليل التي ربما تحضر في أي وقت للقائي والسؤال عن حالي. ألم أنزوِ هنا بسبب رعبها؟ أليست هي من حفزني لهذا الخوف الأزلي؟ أليست هي هروبي؟

كنت أفكر طوال الوقت في كيفية اللقاء. ونوع الحديث الذي يجب أن يقال في حضرة إمبراطورة، وماهية الطقوس التي يجب أن تمارس لتبجيلها كما ينبغي. ورحت أهتف بأعلى صوتي..

يا ملكة الليل قد خذلني التعب...

يا امرأة الليل ماعدت أستطيع تحمل أنة القلب..

يا إمبراطورة..

يا سيدة الفوضى والغموض..

يا مليكتي..

يا مليكتي المجهولة..

يا مليكتي المجهولة، المتوجة وسط حراب الظلام إنطلقي بعيداً عن عربتك السماوية واكشفي اللثام عن هويتك. إذا كان النهار لعنتك فأنا أمنحك بركة المصابيح الكهربائية، ولهفة الشموع تعالي هنا في صومعتي المتواضعة. ها هنا حيث خبزت أيامي المضنية. ها هنا حيث اتلفت الكثير، الكثير من صخب أحلامي. اتركي عنك بهرجة النفايات، وإدمان رائحة العفن. هنا تستقبلك رائحتي معززة مكرمة.

يامليكتي..

أيتها الملكة الغريبة الأطوار.. سيدة العجب واللهو المباح... هيا تنازلي عن كبريائك الزائف واقتربي مادام جو العزلة مخيماً على الغرفة الرطبة. دعيني أكنس العتمة حول وجهك فلربما أعرفه وتكونين تلك المرأة

التي أثمـرت في أحشائي واحة أماني ثم اجتثوها بشراسة، في غفلة من عواطفي الصغيرة.

يا مليكتي..

يا سيدة الليل والحطام، يا امرأة الحلكة والوحدة، يا ملكة الغياهب والسـؤال. من أنت؟ لماذا نبت فجـأة من حطام الخـرابة معتلية عرشك المتـواضـع؟ ولماذا أنا الضحية المختارة؟ هناك العشرات بل المئات ممن يقـطنـون، أو يقطعون هذا الدرب المظلم. أغلبهم يحتقرونك، يحتقرون عرشك المتواضع، يحتقرون مملكتك الوسخة ويقدمون لك الولاء الوحيد، بصاقهم، وتبولهم، وتبرزهم، وحتى استمناءهم النجس في لحظة قنص.

يا مليكتي..

يا سيدة المفاجآت والبهرجة.. يا امرأة التحول والكبرياء.. يا ملكة الليل والحرارة، أنا بانتظار قدومك وأعلن بحب بأنني لست خائفاً منك. أنا خائف من الظلام. كنت ومازلت.

أنا لست خائفاً منك..

أنا لست خائفاً منك أيتها المبجلة بعد الآن. سأمنحك فرصة اللقاء مادمت تصرين على جعلي المخطىء لدى بلاطك. هأنذا أمنحك فرصة العمر فاقتنصيها قبل فوات الأوان.

كان صوتي المبحوح يخفت تدريجياً، وكنت مصوباً نظراتي للأعلى دائماً، على السقف. هناك حيث أنتظر هبوطها في موكبها الملكي الزاهي. ولم أشاهدها. أعرف أنها تسمعني حتى لو لم أصرخ أو أتكلم. أعرف أنها تقرأ لغة عيوني الرمادية. أعلم أنها تتجول حول غرفتي، أو داخلها ولا أعلم لماذا هي متمنعة عن وصلي حتى الآن.

كان ذلك أشبه بالحلم. حلمي القديم، المتجدد حين وجدتها تتكون قربي على سريـر. بالضبط عند قدمي مباشرة. تجمعت صورتها بطريقة

مذهلة. دخان أشبه بالضباب يتسرب من كل فتحات الغرفة ويتجمع عند قدمي. حضرت مليكتي أخيراً تتدثر بدخان ناصع البياض منكسة رأسها في الأرض، تاركة لشعرها الطويل فرصة حجب معظم وجهها الذي أتلهف لرؤيته. أحسست بقدمي باردتين أول الأمر، ثم لم أعد أحسها جزءاً من جسدي.

مليكتي..

يا مليكتي الإسطورية.. يالعنة السحر وعنفوان الوشم الأبدي.. ياملكة القدرة والمستحيل ارفعي وجهك الوضاء ودعيني أبدأ مسيرة اكتشافك اللذيذة.. أخرجي من غلالة الدخان وكوني رعية، بدون رسمياتك... دعيني أستخرج أنوثتك جانباً وأدغدغ مشاعر الحب في قلبك.. هذا الدخان البغيض أمقته.. دعيني أقدم لك نصيحة خالصة.. هذا الدخان لن يمنحك الغلبة في لعبة الحصار.. هذا التكثف الأخرق يهدم صروح نضارتك.

يا مليكتي..

الوقت يمضي سريعاً ولعبة التمنع التي نتبادل أدوارها لن تعيننا على لذة الاكتشاف الجميل. أخشى أن تغادريني إلى دنياك المجهولة قبل أن نشرب نخب اللقاء الأول.

ماذا تنتظرين؟

ها هي أمنيتك الغالية تتحقق دون أدنى مشقة منك؟ من يدري فلربما أنت العقل المدبر لهذا المخطط الغرائبي المثير؟ كل شيء جائز وممكن في هذا الجو الجنائزي الكئيب.

ماذا تنتظرين؟

لقد بدأت أتضجر من تصرفاتك التي يبدو أنها تجنح للأفعال الصبيانية، وهذا الدخان المنبعث من حولك بكثافة بدأ يضايقني. إنه

يتغلغل إلى داخلي مخترقا مسام جسدي، حاملاً معه جرعات من الخمول والدهشـة. أرجو ألّا يكون طابورك الخامس يتقصى حصون الضعف ومعاقل الخوف في نفسي. لا حاجز يجب أن يفرقنا بعد الآن. ترين بأنني قد تخـلصت من خوفي، ومن أرقي، ومن ظنـوني الشريـرة حتى ألتقي بك ونفضح السر الكبير.

ماذا تنتظرين؟

سلبيتك تقتلني. أنت الملكة العظمى. أنت العظمى التي بيدها الأمر المطاع والنهي القطعي. انكفاؤك على نفسك جرم خطير في حقي. هذا السلوك يؤلب عليك مكر الأتباع وطمع الحاشية، صدقيني. اخرجي من قوقعتـك الدخانية. استكشفي هذا العالم، عالمي بنفسك، ودون وسائط تافهة. لا تمنحي الضغائن الشريرة فرصة الوشاية. هيا فأنا أحترق شوقاً وأنت تتلذذين بشهـوة الترقب. وهذا الدخان بات غصة في حلقي، وأنت بالطبع لن تسمحي له بالتمادي في إذلالي. لن تمنحيه فرصة الانتقام. أليس كذلك؟

عدت لا أرى شيئاً. لا الإمبرطورة المشاكسة، لا قدمي الغائبتين، لا شيء ألبتـة أراه في الغـرفـة. دخان بغيض يتمادى في تسليته السخيفة يستعمر المكان، وأنا على وشك التقيؤ من شدة السعال. وأخيراً تقيأت في حضني، على السرير. حدث ذلك أثناء فتح فمي للسعال. أحسست بحركة رشيقة من إصبع نحيف، إصبع امرأة بالتحديد يدخل بلعومي ويقيئني.

لقد فعلتها...

ربما هي تستعد الآن لطقوس الرحيل إلى ذلك العالم الفضي، حاملة معها ضحية هذه المرة. صيداً سميناً أتعبها كثيراً بتمنعه. أحس جسدي خاملاً ثمة أيدٍ ترفعني من على سريري وتطير بي في فضاء فضي. ثمة يد

نسائية ناعمة تمسح على وجهي بحنان فتفقد عيناي بريقها وتصبح الرؤية عندي ضبابية وتائهة المعالم.

ها قد عاد الظلام...

ألم أقل لكم بأنه السيد الحقيقي للأشياء. إنه الوحيد - حسب اعتقادي - الذي يتلذذ بتكفيني. يصحبني في الرحلة السحرية حيث الرفقاء مريبون بدون حدود. يهمس لمتحديه بفخر: هذه ضحيتي منهارة بسبب شقاوتي.

حضوره الكئيب يخيفني فقط، ولكن ما يرعبني حقاً حضانته المخبولة للشواذ من المخلوقات، ولفاتنات الشر، ومكائد السحرة، ومشنقة الكون. أحس نفسي في مكان غير غرفتي. هذا المكان ليس غريباً. رائحته مميزة. الغريب أنني لا أستطيع تحديد هذه الرائحة.

سكون فجائي رهيب...

جسدي أصبح في حالة سكون أيضاً. تلاشى الشعور الجميل بالطيران. بدأت الرؤية تتحسن تدريجياً. كان الدخان يتراجع كسيراً، مهزوماً أمام نظراتي تاركاً للظلام إتمام المهمة.

جسدي على حصير ممزق، وفي غرفة لا تنتمي إلى بيتنا. هل هذه هي مملكتك المزعومة؟ ما بالك لا تمارسين لهو مخافتك في هذا المكان الذي لا يقل حقارة عن الخرابة. انتفضت من مكاني متحاشياً فأراً مندفعاً. هذه الغرفة الصغيرة رغم نتانتها تشعرني بالطمأنينة. بحثت عن الباب لأخرج إلى الحوش. آه الآن عرفت هذا البيت جيداً. إنه بيتنا القديم الذي هجرناه عندما كنت في سن الخامسة، بعد أن هاجر والدي إلى تلك البلاد الصحراوية ليشتغل في النفط.

هنا البلاعة المكشوفة حيث اعتادت والدتي في أوقات الضحى أن تنظف السمك وتغسل أواني المطبخ. وفي نهاية البيت دكة إسمنتية اعتاد

والدي أن يحطم نارجيلته عندما يفقد عملاً. وها هي شجرة النخيل المنتحرة شامخة في بقعتها، ناقمة ـ منذ ذلك الوقت ـ على لهونا بإسقاط ثمارها الجافة.

ماذا أفعل هنا في منتصف الليل؟

من يخطط لمواجهتي أمام ذكرياتي؟

امرأة الليل تخطط لأمر ما. يا امرأة الرهبة والوجل لماذا تريدين أن تواجهيني بذكرياتي مبكراً؟ احتفظت بهذه الورقة لسن الشيخوخة، حينها أكون أكثر تفرغاً لتحليل الأحداث، ولكي أبتعد أيضاً عن محراب الذنب. ما هي علاقتك بهذه المواجهة الخاسرة؟ كيف عرفت ما يدور برأسي؟ هذا الهاجس المحموم ظل أسير أحاسيسي فكيف استولت عليه امرأة الليل؟

يا مليكتي...

أستحلفك أن تنهي اللعبة حالاً لأني ما عدت أحتمل. سئمت أن أظل الهدف في كل مرة. طوال عمري لم تسعفني الفرصة لكي أكون سيد اللعبة ولو للحظة. دائماً كنت مبعث السخرية، ودائماً كنت أختار منفاي بنفسي منسحباً بهدوء الجبان. محاولتك إذا كانت إحداها فإنها لن تغير شيئاً. تعميق الجرح لا يوازي هزة الألم البكر. اكشفي أوراقك كاملة فليس هناك داع للتستر على قبح اللعبة القادم.

يا مليكتي أنا جوع الألم...

يا مليكتي المبجلة أنا غيم الآه..

هذه الثرثرة لا تقدم ولا تؤخر. إنها فقط سلوى مخدرة لجرح القلب. تركت هاجس الظلام ينتحـر على شاطىء اللهفـة، وخـرجت من البيت المهجور. كان الباب موصداً منذ خروجنا الأخير لذلك قفزت فوق السور الواطىء. وجدت الظلام دامساً، وكانت الدلائل تشير إلى عودته من معركة ضارية خاضها ضد القمر صرعه فيها وكبل محيطه بغيوم من أتباعه.

كنت أرى بوضـوح تام لا يقبل الشك أن ثمة آثار أقدام صغيرة ومضيئة تتوغل في الأزقة. تبعتها على الفور. كانت تختفي عندما أسبقها وأتركها خلفي. أحسست بدقات قلبي تتصادم فيما بينها. هذا الطريق أعرفه جيداً. كنت أبكي، وكنت أحاول يائساً تخطي هذه الأقدام. أصبح قلبي يضج بالشوق، والقلق، والخوف، والترقب.

أعرف أين ستتوقف هذه الخطوات المسحورة. ذلك البيت هو البقعة الوحيدة التي تبعث في نفسي ثقة وراحة سرمدية. كانت تقطن هناك امرأة تركتني في لحظة لم أستطع أن أجد لها تسمية. كنت صغيراً، وظنوا أنهم عندما يلقمونني ضغينتهم ويلفقون كذبة سوداء عن غيابها سأصدقهم. فلتعلمي يا امرأتي بأنني - رغم عقلي اليافع آنذاك - وقفت في وجوههم البليدة. منذ ذلك الوقت وهم يكرهونني ويحسبونني نبتة شيطانية ملعونة.

أنا الغصة التي كدرت بلعومهم..

أنا اللغز الذي استعصى على فهمهم

أنا اللعنة التي تلاحق ضمائرهم وتكشف ألاعيبهم الماكرة.

أنا الذي أنتظر ثلاثين عاماً أو أكثر ولم يصدق كلمة واحدة من قاموس الألم، والخداع، واللؤم المتقن.

أنا قادم يا امرأتي الجميلة...

الآن علمت أنك امرأة الليل، وملكته المتوجة، وأن انتظاري أتعبك. أعلم أنك تعدين لي مفاجأة كبرى احتفاءً بلقائنا المنتظر. أنا مستعد يا امرأتي لكل احتمالات السعادة، وميادين الفرح قد شيدت في قلبي منذ رحلت. لم تصدق هذا الرحيل المزعوم.

كانت الخطوات المضيئة قد اختفت منذ لحظات قليلة، ولكنني لم أع. كنت في حالة ثرثرة جميلة مع نفسي. أستعيد قدرتي على الفرح. كنت في حاجة ماسة لقليل من الشجاعة حتى تعينني على تحمل الموقف فوجدتها في نفس عميق، مع إغماض العينين.

الحمد لله لست أحلم...

هذا هو بيت مربيتي، امرأتي الجميلة، إمبرطورتي الليلية. كنت قد حضرت مراراً خلال الثلاثين سنة الماضية، وفي كل مرة يخيب ظني ولا أجدها. أطرق بابه بجنون، بحرارة سائلاً عن رجوعك اليائس، وفي كل مرة يعيدني الجيران إلى بيتنا منهوك القوى، ومحطم القلب.

هذه محاولة جديدة..

طرقات تجاوزت حاجز الأعداد...

ولن يمنعني شيء من الطرق في مثل هذا الوقت الذي تجاوز الواحدة صباحاً. هذه المرة الأمر يختلف، لم أحضر وحدي. معي خطواتك الجهنمية. وهذه المرة سأجدك في مملكتك تتزينين، وتتعطرين، وتتقلدين عقود الورد والياسمين لتعودي نضرة وشابة. أووه... شبابك لا يهمني، أريد فقط أن أراك وأن أحضنك. أريد أن أبكي بعمر سنين الجدب الماضية على صدرك الحاني، وأقص عليك هموم قلبي، ومتاعبي، تلك التي أصبحت حملاً ثقيلاً لا أستطيع حملها وحدي.

كان قلبي المشتاق يطرق الباب بدقاته العنيفة. مزيداً من الطرقات. وعندما حاولت يداي أن تجرب حظها كان صرير الباب القديم يتسلل إلى أذني نغماً طروباً. انفتح الباب قليلاً وكان ثمة ضوء قوي ينبعث من الداخل. لم أستطع النظر من خلاله. جمدتني المفاجأة ولم أتحرك. عندها

سمعت صوت نوارة العذب كما لو أنه تهويدة يقول:

ـ ادخل يا صغيري المدلل مملكتك المضيئة ولا تخش أحداً.

ترددت قليلاً أستوعب ما يجري أمامي في سكون هذا الليل البليد.

وجدت الخطوات المضيئة تستقر تحت قدمي المتجمدتين لتدخلني إلى البيت في هدوء...

منتهى

الهدوء...

بيت نوارة

بيت نوارة لم يكن له مدخل كهذا الدهلىز الطويل. أتذكره جيداً كما لو دخلته بالأمس. الباب الخشبي المزخرف يفضي إلى الحوش المربع الصغير، غير المبلط. بيت آخر هذا الذي ادخل إليه.

دهليز مظلم جداً في نهايته ولا ضوء إلا حيث أمشي. ثمة أيضاً نسمات لاسعة البرودة تنبعث من مسام الجدران الطينية تنسيني رطوبة الزقاق. أرفع رأسي بصعوبة لا أحد السقف المبطن بجريد النخيل، الواطىء، الذي كان يشتمه ابن نوارة الوحيد عندما يصطدم برأسه ويجبره

على الانحناء.

هل هذا حصنك المنيع أيتها الملكة نوارة؟

هل هذه قلعتك أيتها الإمبراطورة؟

لماذا تتركينني أتخبط في ساحة الأوهام هذه دون دليل، تتلاطمني تيارات الأسئلة؟

توقفت بصعوبة تاركاً الخطوات المضيئة تواصل مغامرتها المجنونة. دعيني أكتشف مملكتك الجديدة، هذه التي كنت تحلمين بها في الماضي الجميل. لماذا لم تخبريني بأن مملكتك بيئة قمرية؟

هذا الدهليز فضاؤك الرحب، وأنا أحلق فيه كرائد فضاء بدلته الحلم. أسبح بين صباحاتك وأغتسل بابتسامتك، وأتمرغ بين كتل حنانك الدافئة. أشياؤك الكثيرة تحلق معي، لا شكل لها، ولا لون، ولا رائحة. أراها ولا أستطيع وصفها، أحسها ولا أستطيع مسكها.

أنظر للأسفل ولا أرى إلا دخاناً متقوقعاً على ذراته. جاءني هاتف داخلي أن أجدف، وأجدف، وأجدف حتى لا أضيع فتتوه عني الإمبراطورة من جديد، وللأبد. فعلت ذلك متشككاً فإذا بي أبحر بنعومة في هذا الفضاء الذي توشح بقوس قزح.

كان الصوت الأليف يمدني بالتفاؤل والأمل، كانساً بنشاط ذرات التشاؤم العالقة في الجو. يعدني بمدن أبدية للسعادة، وبمكيال فرح يعادل وزنه كرة أرضية. ومازلت أجدف تلبية لنعومته، وإرضاء لذاتي، هذه التي بدأت تتمرد على رعبي.

كنت أتغافل - وهذا يبدو لي - عن جبال خرافية قال الصوت بأنها بقايا حقد بشري. وكنت أصطدم مراراً بأجساد متحجرة محذراً الصوت إياي من عمل فعلتهم، الغدر. وكنت فرحاً لأنني اكتشفت بأن الصوت الرخيم إنما هو صوت مليكتي الغائبة، صوت الحبيبة الأزلية نوارة.

نوارة... يا فرح الرعية بصدق المبايعة
نوارة... أنا المبايعة، والمبايعة أنا
نوارة...

هأنذا صعلوك حقير يطلب الصفح من ملكته المعظمة على قذفها بوابل الشك. أستمحيك عذرا يا صاحبة الجلالة يا نوارة على حماقاتي، وعلى سخافاتي الصغيرة، وعلى سوء تقديري. كان ينبغي أن أعلم أن الهالة المحيطة بعرشك المهترىء من صنع غيابي المر. كان ينبغي علي أن أتقدم بتبجيلي وأرمي طاعتي العمياء تحت قدميك على الفور مثل العبيد. كان يجب علي قبل أن أطيع خوفي أن أسأل قلبي ولو لمرة واحدة: هل توجد امرأة غير نوارة بإمكانها ضعضعة كياني؟

كل النساء في نظري نسخة واحدة مكررة على أجساد ووجوه عدة. كلهن نسخة باهتة. فستان جديد، وثوب سهرة. كلهن شهوة متقدة، وفراش، وضوء أحمر ثالثهما. كلهن ثرثارات وغبيات. كلهن دجاجات عاقرات يحلمن بديك نشيط. كلهن نسخة مكررة من الخطيئة مع فوارق تافهة.

كل نساء العالم في كفة ونوارة في الكفة الأخرى الراجحة. كان ينبغي أن أعي أن نوارة شعلة في قلبي كما أنا جمرة تتقد في ذلك القلب المهاجر، وأن الغياب مهما تلكأ له الزوال.

نوارة...

أنت سيدة العصور، وكل اعتذارات الدنيا سنبلة لا تطعم جوع لهفتك على ضمي. اخرجي يا سيدتي من غرفتك الملكية ولنتدارس أخطاء الماضي.

نوارة.. هل تسمعينني؟
نوارة.. ما بالك صامتة؟

عادت اليدان المطاطيتان تنتشلاني من وحل الفضاء باتجاه حوش البيت. خلال رحلة العودة رأيت بيت العائلة يتلألأ من بعيد ثم يدنو مع اقترابي. رأيت أمي وأبي شابين على فراش ليلة الزفاف، ثم وهما ينجبان العائلة، ثم وهما يكبران تدريجياً. رأيت في الجانب الآخر بيتي وهو أرض نفايات قذرة، ثم وهو يشيد، ثم رأيت نفسي أهرم شيئاً فشيئاً وأنجب الأولاد والبنات، ثم أراهم يتزوجون ويتركوننا. كانت الرحلة سريعة وكنت أعجب لقدرتي على تسجيل الأحداث وحفظها وعلى ردة فعلي الفورية. رأيت أشياء كثيرة لم يكن بينها ما يمت بصلة لنوارة.

نوارة.. التي بدأت أحس بحرارة يديها ودفء ذراعيها. نوارة.. بكيت بكاء طفل فعلاً، وأغرورقت عيناي بالدموع، ولم تتوقف.

كانت المسكينة تهدئني تارة بتقبيلي على رأسي، وتارة أخرى بطبطة ظهري الطري.

نوارة..

لاتستطيعين أن تمنعيني من البكاء. نهر الدموع هذا يغسل ألم السنين الماضية، سني العذاب والفراق. دعيني أفعل شيئاً صحيحاً أرضى عنه ولو لمرة واحدة في حياتي. البكاء يساعد قلبي على تطهيره من أغلال الماضي الصدئة.

تجلس نوارة على حصير من خوص النخيل وتضعني ـ كما لو كنت نائمـاً ـ في حجـرها وتحركني بلطف منشدة بصوت ناعم رخيم لم تغيره عجرفة السنين كلمات التهويده القديمة..

هلولوه.. هلولوه.. هلولوه

يرقد وليدي رقدة الهنية

رقدة الغزلان في البرية

لا أدري لماذا لم أنظر إلى وجهها حتى الآن. المفاجأة ورغبة البكاء المستمر طغيا على لهفة المشاهدة. أمسح أثر الدموع. العيون الصافية تكشف وجه نوارة الذي لم يتغير إلا بالكاد. أثر تجعيدات لاتلاحظ حول العينين، وابتسامة ساحلية ساحرة تغسل الوجه البيضاوي المجهد. لك الحمد والشكر يا إلهي على أنك حفظت نوارة كما هي ضورتها في الفؤاد.

صوتك عذب يا نوارة فلا تحرميني سماعه. واصلي إنشادك. تكلمي بأي كلمة. المهم أن أسمع هذا الصوت الشجي يتنزة بحرية في ردهات أذني.

أنت لاتسمعينني. إنـك مشغولة بشوق لقائي. تارة تهدهدينني، وتارة تقتلعينني من حضنك لتضميني إلى صدرك. أحسك بعض الأحيان محمومة بإطعامي ثدييك. لاداعي لذلك يا مليكتي، حليب الطفولة هو دمي الذي يغذي ذكرياتي الدهر كله.

نوارة..

أنت لا تسمعيني وهـذا لا يضـايقني مطلقـاً. أعشق أن تكوني مغتسلة حتى النخـاع بغنـاء جسـدي، وتـرنيمـات ثناياه. تائه أنا بين مخلوقات حنانك الأليفة التواقة للهو البريء. ستسمعينني لاحقاً، بعد أن تفرغي من طقوس المحبة الملتهبة. ستسمعينني بعد أن تستكملي اعترافات وحشة جسدي الطويلة. سنتكلم طويلاً، حتى يتعب أحدنا ويكف عن الهذيان.

تضعني نوارة أمـامها مباشرة. لأول مرة نتواجه. يكتشف أحدنا تقاطيع الآخر، الوجه، الجسد، علامات الغبطة، وآثار الدهشة التي تلاحظ بالكاد. كم هي جميلة نوارة. تبدو أصغر سناً عن آخر مرة رأيتها. كان ذلك منذ خمسة وعشرين عاماً. نوارة السيدة المبجلة، سيدة البشرة البيضاء شارفت على الخمسين ولا تزال نضرة.

من أعطاك حمرة الخدين؟ من حفظ بشرتك الصافية من التجعد؟ من حنط القوام المشوق حتى سن الخمسين؟ من أعطاك الوصفة الفرعونية يا مليكتي؟

ولقد سمعتني نوارة رغم أنني كنت أثرثر مع نفسي، وابتسمت. حملقت في تقاطيعي بتأنٍ وبدأت عيناها تغرورقان بالدموع. لا أستطيع أن أمسح مجرى الدموع لأنني كنت أشبه بضحية تنويم مغناطيسي.

قامت نوارة ساخطة. كانت تتمتم غاضبة على أمر له علاقة بي شخصياً لم أفعل شيئاً يجلب هذه الثورة. كما لم يحدث شيء غريب حيث نجلس. حيث نجلس هناك إحساس قاتل بأن المكان يعتصرني، وبأن تمرداً يجري في الخفاء.

مابالك يا نوارة؟

أهو واحد ممن لا أتمكن من رؤيتهم يؤلب فرحتك الغامرة على إحساسي بلقياك؟ أهو أحدهم يدبر لي مكيدة تبعدني عنك وأنت ضبطه بالجرم المشهود؟ هل هو أحد الجناة الذين تآمروا لإبعادك؟

وصرخت لا شعورياً في داخلي ليطفح على لساني تساؤل طفيف:

ـ ماذا حدث للإمبراطورة؟

كررت السؤال عدة مرات وبنفس اللطف، وفي كل مرة يزداد بكاء نوارة. دموع حمراء تتساقط على الحصير فيلتهب ثم يحترق. يبدو على نوارة السعادة بهذا الشواء. رحت أبصق على النار من خوفي على محبوبتي الغالية. أبصق، وأبصق حتى جف ريقي. عاد الدخان اللعين يبتلع الإمبراطورة التي كانت سعيدة بهذا الالتحام الدخاني الكثيف. سمعت صوتها خافتاً يعدني بالعودة المظفرة. كنت مذهولاً بسلاسة الأحداث، ثم ارتباكها المفاجيء.

لم يعد يخفيني الظلام...

معي وعد الإمبراطورة، ومعي فوتوغرافيا جديدة لنوارة اللامعة، ومعي تهويدتها الأخيرة..

«سنلتقي رغم أنف الزمان.. سنلتقي في هذا المكان».

في حوزتي شطر واحد تحقق، معي المكان، هذا ما جلبته لي الإمبراطورة. لقد فعلت المطلوب منها، وحان الآن دوري المرتقب.

يا نوارة..

يا ملكة الليل والحطام.

أيتها الجالسة على أنف الوقيعة ورقبة الظلام.

أيتها الجالسة على أنف الوقيعة ورقبة الظلام.

... أنا القادم عبدك الأجير.

... أنا نديمك المفضل.

فاستبشري للمستقبل الذي هو تفاحة خضراء بين يديك. سأقول كلمتي المخبأة طويلاً بين أضلاع صدري. سأتربص للمخالفين والخارجين على قانونك. سأفتح صفحة جديدة تبدأ باسمك.

أنتفض من مكاني. سكون لا يوصف يخيم على المكان، ولا شيء حولي يغري بالبحث. لا شيء سوى الحصير المشئوم. أتقدم منه بحذر. ما زالت المنطقة ساخنة، وكلما اقتربت تزداد سخونة. آه إنها حرارة لا تطاق. ثمة أصوات غريبة، أصوات تذكرني بضجيج غابة في وقت الذروة.

أصبحت لا أخاف الظلام..

أعرف أن نوارة الحلوة معي. أحس بها هي التي تحرك قدمي من تحت الأرض حيث استقرت مؤقتاً، وإنها تخفف من اللهيب كلما اقتربت من الحصير، وهي التي ستكون معي أيضاً عندما تحدث المواجهة الكبرى/ المعركة، وهي التي ستعطيني مفتاح النصر، وهي التي ستطبل لموكب الانتصار.

حسناً يا نوارة أنا الآن في عنفوان قوتي ولن أخيب ظنك في معركتك القادمة. ثقي تماماً بأنك تعتمدين على بطل لا يمت بصلة إلى ذلك الجبان الذي عرفتيه في الخرابة. سأقاتل وصورتك محفورة في قلبي. مقاتل يقدم حياته الرخيصة في كفه ويمضي لحتفه سعيداً. هذا السجن الذي يضيق خناقك سيزول قريباً. أعدك صادقاً بأنني سأبتلع القضبان الحديدية، وأفتت الطوب الجيري، وأقتص من السجانين الأميين، وأزجر الفضوليين.

أعدك بالحرية..

أعدك يا نوارة باغتيال الظلمة..

أعدك بإشراقة جديدة تبرىء ساحتك التي لوثتها الشائعات..

سأسترجع كرامتك التي استباحتها وحوش الغابات الإنسانية..

ستعودين عذراء يا نوارة

ستظلين دوماً الأنثى اليانعة

أعدك يا نوارة بأن أنصبك إمبراطورة العذراوات

سأثور على مملكتك الآن.. مملكة الظلمة والفتن.. مملكة الغدر والضغينة..

ستعودين أنثى نقية..

ستعودين أنثى طاهرة..

ستعودين أنثى عذراء..

وهذا العهد الثلاثي طوق دم في رقبتي. ملحمتي الأسطورية الكبرى، وراية نصري المؤزر. حصاني الأشهب، ورمحي المسموم في صدر أعدائي، وخوذتي النحاسية التي لا تصدأ. هذا العهد الغالي كتاب براءة من الدسائس والخصوم، ودرس بالغ القسوة لمحترفي التآمر والرياء. هذا العهد الدموي وثيقة انتقام رهيبة لأولئك الذين بذروا العار والمذلة في طريقك الشريف يا نوارة.

.. والله إني لحاصدهم أجمعين

.. ورب العزة والجلال إني لخاسفهم

.. سأنفذ فيهم قصاص ربي العزيز، الجبار وأجتثهم من رحم هذه الأرض التي حرثوها بضغائنهم، وحولوها إلى غابة يحكمها منطق البهائم. فاستعدوا يا جبناء ويا سفلة، يا أبناء الزمرة الملعونة، يا نسل الوسخ والقذارة، يا بهائم.

يا من تلوثون سمعة الأبرياء وتستبيحون الطهر.. نحن قادمان.. أنا ونوارة.. أنا من فوقكم ونوارة من تحتكم.. والحصير بيننا.. وهذا ما أنا فاعل..

أنحني إلى الحصير وأمسك طرفه. إنه ساخن جداً ولكنني لا أكترث. أحاول رفعه ولا أستطيع. يدي تحترق. أفقد الجلد ولا أفقد صبري. أحاول مرة أخرى وأفشل أيضاً. شيء ما يشده إلى الأرض وهذا الشيء أكبر قوة مني بالتأكيد. أفقد اللحم ولكنني محتفظ برباطة جأشي.

لا تقلقي يا نوارة.. وعودي ليست بالونات لا تقلقي يا نوارة.. سنفكر معاً في شيء من الذكاء كيف نهزم القوة الجوفاء، المجردة.

أترك الحصير وأتجول في بيت نوارة العتيق. هنا غرفة ابنك الوحيد الذي خيب ظنك وهجرك لينتظم في الجيش، ثم هرب. هنا المطبخ الذي يتسع بالكاد لجسدك وموقد الكيروسين وبضع أوانٍ نحاسية. هنا غرفتك التي احتوت ذكرياتنا الحلوة وغيرة زوجك من حبي. وهنا دورة المياه. إنه نتن ورائحته لا تطاق. احتلته عائلة عنكبوتية. أنا أبحث عن الماء. لا يمكن أن أنسى تأكيدات جدتي بأنه سلاح فتاك. أنا مضطر لأن أصدقها الآن عندما كانت تقول بثقة بأنه يضعف قوة الكثير من المخلوقات غير المرئية.

وجدت في المطبخ القليل منه في علبة معدنية صدئة تكاد تتفتت. حملتها بحذر. أحسك معي يا نوارة فرحة بخطواتي تمهدين صعوبة

الطريق. سكبت الماء الملوث على جوانب الحصير. يالها من وصفة رائعة، فقد اغتال في لحظات جبروت الدخان وهيمنة البخار وأعاد للمكان حرارته الطبيعية.

لمست الحصير. كان دافئاً ولا يبدي أي مقاومة. استسلم لأصابعي المحترقة ترفعه ببطء.كان هناك نور عظيم يشع من حفرة مربعة، أنيقة كان الحصير يستر عورتها.

رميت الحصير الحقير جانباً وطفقت أتأمل ما أراه بعين جاحظة. حفرة صغيرة بدرجات تؤدي إلى عمق الأرض. وقفت متجمداً لا أدري أهو الخوف مجدداً من المجهول؟ أم هو هول المفاجأة التي لم احتسب وقوعها. لا أدري ماذا أنتظر؟ لا أدري ماذا أفعل؟ أين هي نوارة؟ للمرة الأولى من دخولنا هذه المغامرة لا أحسها تقف بجانبي لتؤازرني. ثمة صوت غريب بدأ يدوي في المكان. إنه الحصير يرفرف في مكانه من أطرافه الأربعة. حتماً هو غاضب وحانق على هزيمته من بشر ضعيف البدن مثلي. بدأ يرتفع من مكانه. نظرت صوب الحفرة، ثمة شبح يصعد فوق الدرجات قادم من عمق الأرض. أنا على وشك أن أتبول في ثيابي، وهذا غير مستحب إنه وقود يؤجج غضب تلك المخلوقات الأنانية. الحصير يشتم تمدد مثانتي وبدأ يطير نحوي. في الحفرة يكشف الشبح عن هويته، إنها نوارة تدعوني للدخول. لم أتردد، أمسكت بيدها القطنية ودخلت معها. سمعت الحصير يزمجر وهو يغطي الحفرة مجدداً.

ضمتني نوارة فوق العتبة الأولى وهي تبكي. قبلتني على وجهي وهي تكاد تكون غير مصدقة. قالت بطمأنينة:

ـ لا تخف بعد الآن يا أميري الصغير. فأنت هنا في أمان.

كنت أستطيع أن أرى اثنتين وثلاثين درجة خضراء غضة تؤدي إلى

الأسفل المجهول، وأخرى حمراء متقدة يصل عددها إلى الستة والخمسين، جنباً إلى جنب.

قالت نوارة بتأثر:

ـ الدرجات الخضراء هي عمرك يا صغيري الشجاع الذي سوف نمشيه ونتدارسه. أما الدرجات الحمراء فهي سنون عمري البائسة. سنعود لها بين فترة وأخرى نتذكر المؤلم منها والحزين.

أعلم بأننا سنمشي الدرجات سوياً، كل بخطواته، وعند آخر الدرجات سنتعانق. ستخرج إنساناً جديداً لا يوقفه أي عائق عن تعقب ذلك الشيء المؤرق المسمى.. حقيقة.

لماذا أحضرت معك الفراق إلى هنا أيضاً؟ توقعت أننا ضيعناه في الخارج، ولكنني كنت مخطئاً في تغافل لعنة كهذه. سأمضي معك نغتسل من آثار الماضي لعلي أغدو انساناً جديداً يحتمل هفوات مرتادي الحياة.

واصلت نوارة:

ـ لا تقلق من شيء يا صغيري الرائع. أنت معي، مع نوارة التي تحبك وتضحي بالغالي والنفيس من أجل سعادتك وراحة قلبك. مطلوب منك أن تصعد على ظهري وتمسك رأسي جيداً. يجب أن تصغي لكل ما يقال لك، لكل ما تأمر به، وأن تشاهد كل صغيرة وكبيرة، والأهم من ذلك كله أن تلتزم الصمت والسكينة مهما رأيت أو سمعت. كل تشويش أخرق أو مقاطعة صبيانية تعني الكارثة. الكارثة يا صغيري التي لا يوقف حدوثها حتى المعجزة التي تساندك حتى هذه اللحظة.

ما هذه المحاضرة الجنائزية التي تلقمينني إياها يا نوارة القلب. لا تفسدي لذة اللقاء والفرح. دعينا نلج مغامرتك المجنونة بروح المرح والتفاؤل. لن أحيد عن تعليماتك المقدسة، تعرفين هذا الالتزام جيداً يا

إمبراطورة المجهول والذهول. سأكون طفلاً مطيعاً يتجنب اللهو والعبث فلا تقلقي يا أماه.

واصلت نوارة:

- يجب أن تعلم أن ما تشاهده لا تستطيع أن تغيره. نعم تستطيع أن تقتحمه وتحس بدفء المشاهد وغير ذلك من رابع المستحيلات. لك الحسرة والانفعال المحدود. لك العبرة والمستقبل. لك الصمت والسكينة. وغير ذلك محرم وغير مأمون العواقب، ومدمر بدون حدود. ولا خيار لك الآن غير الموافقة غير المشروطة يا أميري. اطمئن فقد قرأت عليك بركة السلامة.

حالما لمحت نوارة علامة الموافقة بادية على وجهي لم تنتظر نطقها. حملتني على كتفها كما لو كنت طفلاً صغيراً. إنها تلعب معي كما في طفولتي وتتركني أتسلى في شعرها الملائكي الناعم.

مشينا طويلاً في جو غائم. كانت الرؤية رمادية ولم نصادف في طريقنا أي شيء. كأننا نمشي في صحراء جدباء. غناء نوارة وأناشيدها كانا سلوتي الوحيدة. أردد معها بإتقان كلمات قديمة لم أتذكر أنني حفظتها حتى توقفت.

- تقتلك الأسئلة يا أميري الصغير لذلك استمع لما سأقوله جيداً. نحن الآن فوق العتبة الأولى. مشينا ثلاثمائة يوم تقريباً، هي من تعداد سنتك الأولى في هذه الحياة. أنا أخاطب الرجل في داخلك لأنك لا تعرف النطق بعد. اصبر يا صغيري ولا تستعجل الأمور. لازلنا في بداية الطريق.

اتجهت نوارة صوب اليمين ونزعت قطعة كبيرة من الفراغ الذي اتضح أنه قماش رمادي وقالت بريبة:

- انظر يا صغيري وتذكر تحذيراتي السابقة لتتجنب الكارثة.

التفت ببطء صوب اليمين المريب. كانت هناك مرآة عملاقة تعكس صورة ملونة بالحجم الطبيعي لنوارة وهي في العشرينيات، يافعة، حسناء،

وهي تحمل على رقبتها طفلاً رضيعاً ملامحه معروفة. كانت تمشي وكأنها قادمة نحونا. نراها الآن تغوص بين الأزقة.

ـ هذا الصغير هو أنت في سنتك الأولى. نعم كنت معي تتغذى الحياة من ثديي. في هذه المرآة تفاصيل يومك الدقيقة. نقف الآن على الدرجة الأولى كما تعلم وعند الخطوة الثلاثمائة. كل خطوة تعني يوماً. سيكون على يسارك نواياك الشيطانية، وأوهامك، وشرورك. أعماقك تفهم ما أقوله فلا تنزعج. دعنا نواصل مغامرتنا بسلام.

وبدون مقدمات انخرطت في بكاء أهوج. حاولت نوارة أن تهدئني ولم تفلح. ما من شيء يقدر أن يسكتني في هذه اللحظة، بعد أن عرفت أنه يجب علي أن أستعيد قدري المر مرة أخرى. أنزلتني في الحال ومازلت أبكي. أنشدت دون فائدة القصائد التي كنت أحفظها ولم توفق. أخرجت ثديها الكبير وأغوتني بالحليب، ومازلت أبكي.

نوارة.. أنا خائف جداً في أعماقي. ينبغي أن تغتالي هذا الأحساس في قلبي مادمت معي تحرسينني من المصائب والنوازل.

يبدو أنها تراجعت لتقول مضطرة:

ـ حسناً .حسناً. هناك طريق آخر تمر فيه بحياتك، وتحكم على بعض أفعالك. طريق وعر، محفوف بالمخاطر والمفاجآت. هذا الطريق غير مضمون لذلك لم أقرر سلكه منذ البداية. طريق المجازفة هذا قد تصل منه إلى مرادك بعد خطوة، وقد لا تصل وتبقى معلقاً بين الحقيقة والخيال. لك أن تختار هذا الطريق، ولكن لا تتوقع أن يصحبك جسدي. هذا الطريق سلكته مرة واحدة وكان صعباً علي ولن أغامر بتكرار التجربة. أنت صغيري ومن حقي تقديم النصيحة لك.

تبكي نوارة. لم تتوقع أن ألج الكابوس مبكراً. أراها تمعن النظر في وجهي جيداً. ربما يكون هذا اللقاء هو وداعنا. وربما إذا نجحت، ماذا يحدث يا نوارة؟

ـ أرجو أن تكون محظوظاً وتنجو من براثن الكابوس. هذه المغامرة هي رحلة غير ممتعة في مرابع شرور نفسك ونياتك الخبيثة. ستدخل من الجانب الأيسر وعندما تنتصر يا أميري ستلبي أمنية حياتك، وتبقى السيد الأوحد، المطاع.

أطلب العفو منك يا إمبرطورة الليل..

انتظرت طويلاً حتى ألقاك، ولا أطيق أن أضيع عمراً كالذي مضى في أمل قد يكون محض سراب.

أستمحيك العذر، فأنا راغب في أن يكون لقاؤنا المرتقب عاصفاً ومحموماً، راسخاً وعملاقاً على مر الأيام. سوف أدخل المجهول بيقين إني عائد لكي أمزق ستار الظلمة من حولك.

تأخذني نوارة من ذراعي ثم تلف حول نفسها بسرعة البرق وهي تتمتم.. «اللهم ارجعه لي غانماً، معافى، محملاً بالحب الصافي والانتصار المدوي».

في استدارتها الأخيرة قذفتني جهة اليسار. أحسست بجسدي يتمدد ويعود تدريجياً إلى حالته الطبيعية. كنت أطير في مستوى أفقي ثاقباً في طريقي أغلفة شفافة من الطين، والماء، والهواء، والقماش الناعم. وكنت لا أتأثر، فقط أحس بوجع في قلبي، كوخز الإبرة. كان الجو رطباً وأنا أمضي طائراً بسرعة المحركات النفاثة. كانت هناك دائماً ظلال قاتمة لمجموعات، وهي تتشابك بالأيدي، ودواب بألسنة طويلة مشقوقة إلى نصفين، تلبس كالبشر وتثرثر بلغة مبهمة وهي جالسة في صالونات فخمة، ونسوة عاريات ذوات شعور طويلة يضربن بعضهن بعضاً، ورجال حليقو الشوارب برفقة

صلعـان يبحثـون عن كوخ مستـور، وشـوارع مهجورة، ومبان شاهقة مشتعلة دوماً بالنيران. رأيت أشياء كثيرة لا أتذكرها. نسيت أغلبها لحظة دخولي المعركة/المغامرة.

هبطت في أرض غير مستوية أشبه بالغابة، ولكنها ليست بالغابة، أشبه بالصحراء ولكنها ليس كذلك. هي أيضاً ليست بالواحة الخضراء، ولا الوادي الخصيب، ولا السهل الممتد. هي خليط من كل هذه البيئات.

وحدي في هذه البقعة..

نوارة قالت قبل قذفي بأنها ستراقبني عن بعد، وتدعو لي بالتوفيق. سأكون بخير هنا وقلبك معي. أنا الآن لست خائفاً كثيراً. على الأقل لا يوجد هنا ظلام على الإطلاق. نور شديد بدون شمس، ولا حرارة. أين يقع هذا المكان الغريب؟

وحدي في هذه البقعة الغريبة..

اكتشفت عندما حاولت أن أخطو بأنني مغلف بكيس هلامي كبير، شفاف. أحس لزوجته المقرفة عندما أصطدم به. من أين طريق الخروج من هذه الزنزانة الخفية؟ تحسست كل شبر فيه حتى وجدته في الأسفل، ارتخاء في أحد الأطراف. رفعته على الفور وبدأت أخطو.

بدأت أخطو..

لم تعد الأرض مزدحمة بالبيئات المتناقضة، ولم تعد مطمئنة. هناك علامات كبيرة على لافتات، ولا أثر للكتابة.

بدأت أقترب..

رأيت ست لافتات ضخمة تؤدي إلى ستة ممرات ضيقة. وعند كل ممر يقف حارس بملابس مختلفة ووضعية مغايرة. كل حارس منهم يمسك

في يد ساعة توقيت، وفي اليد الأخرى دفتر سجلات كبيراً.

عادت تلك الخطوات المضيئة لتقودني إلى الطريق. هذه خطوات نوارة، وهذه المعونة من تدبيرها.

لم أحدد إلى أي الممرات سوف أتوجه. وجدت نفسي أمتطي الخطوات وأتركها تأخذني إلى مشتهاها. هي تتجه الآن إلى الممر الأقصى متحاشية المرور أمام بقية الممرات. تتفادى خطاً أحمر اللون مشتعلاً حتى توقفت أمام اللافتة الأولى، ثم تلاشت من تحت قدمي.

لافتة الماء

بهرتني اللافتة الرخامية العملاقة بشموخها. هناك مجرى مائي يقطع عرض اللافتة. هذا المجرى يبدو أنه لقيط، لا منبع له ولا مصب. أيقظني الحارس وهو يدق بقبضته على دفتر السجلات العتيق.

لم أشاهد وجهه، كان يخفيه بأن يلتفت إلى الممر المظلم. كان يشير بيده الخشبية الخشنة أن أبصم في الدفتر قبل الدخول.

ألقيت نظرة على الدفتر الذي كان شديد البياض في الوسط بينما كانت هناك كلمة تتوسط أعلى الدفتر «تعهد». وضعت إصبعي على الدفتر

الذي كانت أوراقه بلورية فاندفعت في جنون سطور مرئية تتدافع للأعلى لتتوالد سطور جديدة. بعد بضعة الآف من السطور استقرت في أسفل الدفتر كلمة جديدة، شديدة اللمعان هي «التوقيع».

لم يكن هناك من خيار آخر غير هذه البصمة. رفعتها ببطء واختفى كل شيء. بقية المرات الخمسة، الحارس المغفل ذو اليد الخشبية، لافتة الماء، وشاشة السجلات الفضية.

وجدت نفسي أمام مرآة عملاقة لم أتبين حدودها المهولة. كنت في أروع حالاتي الداخلية. كم أنا وسيم. لم يكن شعري ناعماً كما هو الآن، ولم يكن في يوم من الأيـام أشقـر اللون. لم أمتلك جسداً رشيقاً وبشرة بيضاء صافية كالتي تبهرني الآن. هو أحد احتمالين إذن، إما أن المرآة مسحورة، أو أن عينيّ تهلوسان.

قلت للمرآة:

- أخبـريني يا مرآة قدري ويا كاشفة الأسرار المستحيلة من هو الوسيم الذي يتمرغ متفاخراً بين بلوراتك السداسية.

أجابت المرآة:

- هذا وليـد الإمبراطورة المعظمة، هو أنت أيها الفارس الوسيم. فريق من صبايا حسناوات هرعن إلي في المرآه. خلعوا عني ملابسي وقعدن يدعكن جسـدي بالعـطور في صدفـة كبيرة. كم هي زكية رائحة الأنوثة والعطور في أنفي. كن يستمتعن بعملهن هذا وكنت كالأبله. كالطفل لا أفقه لتغنجهن.

أستطيع أن أؤكد بحدسي الخاص أن الصبايا لم تواتيهن الفرصة لكشف عورتي، ولا أنا كذلك. كلنا كنا نبحث عن السراب. وعن الوهم أيضاً. دثرنني بمناشف قطنية ثم بقفطانات حريرية ناعمة.

أجلسنني على أريكة من ريش النعام ثم توزعن حولي. واحدة شقراء الشعر سمراء البشرة تسقيني شراب العسل ليقيني من شر الأمراض. وأخرى سوداء الشعر خضراء العينين تطعمني بدون توقف أشهى المأكولات حتى لا تصرخ معدتي مبكراً من وجع الجوع، وأخرى يعجز لساني عن وصف حسنها تدلك قدميّ حتى يضل التعب الطريق إليهما. كثيرات كن حولي، واحدة تمشط شعري بأصابعها، وواحدة تحلق ذقني بأظافرها. وأخرى تقلم أظفاري بأسنانها الرمانية، وأخرى تغني في أذني أناشيد الغرام العذرية، والباقيات يمسدن جسدي وقت الراحة.

انقضت ساعة الأنس سريعاً. بدأت مراسيم جديدة. أوقفنني على بلاط ذهبي وألبسنني ثياباً غريبة لا تمت لزماني. بدأن بالسروال الفضفاض من الأعلى والضيق عند القدمين، ثم الحزام الذهبي ذي الحافظ العريضة، ثم بالقميص الذي كان بدون أكمام وبفتحة مثلثة جهة الصدر، ثم بسترة طويلة الأكمام وفضفاضة تزينها خيوط الذهب بنقوش بديعة، وأخيراً قبعة ملفوفة على شكل هرمي. كل تلك القطع القماشية تتسم بلون واحد هو الأحمر، الأحمر ولا شيء غيره. ثم اختفين جميعهن وأنا منهك في تامل ملابسي الجديدة.

إنه الحارس مجدداً يأتي إلي، مخفياً وجهه هذه المرة خلف حصان أبيض مرقط بالسواد. يسلمني قوساً وكنانة مليئة بالسهام. يترك في يدي لجام الحصان ويمضي سريعاً دون أن يسمح لي بأن أرى وجهه الذي ربما يكون دميماً.

تهشمت المرآة عندما أصابها سهم طائش كنت هدفه. لقد بدأت المعركة مبكراً على ما يبدو. امتطيت حصاني الأبجر ولكزته ليعدو بعيداً عن المجهول والخطر.

كان الحصـان مطيعـاً لحـركاتي وكأننا أصحاب منذ زمن طويل جمعتنا الغزوات ورحلات الصيد. في البداية كان يستخدم أرجله الأربع في العـدو ولكنـه عنـدما كثرت السهام المسمومة التي تستهدفني حلق في الفضاء بجناحين صغيرين، ناعمين كانا يربضان على جانبي بطنه، تماماً كعصفور صغير يغرد لحريته. أرخيت له العنان ليأخذني إلى منطقة آمنة. هبطنا إلى دغل يبدو أيضا أنه غير آمن. شكراً لهذه الفراشات المضيئة التي ظهرت فجأة وأعانت حصاني الأبجر على تلمس الطريق لم تستمر مرافقتها لنا طويلاً. تركتنا لتستقر على شجرة ذات أغصان سوداء تثمر بأزهار بيضاء شديدة اللمعان، بالقرب من بحيرة ماؤها ذهبي.

وقفنا على رابية تطل على وادٍ كثير الأشجار والدواب. رأيت راعياً رثَّ الملابس خلف شجرة مثمرة وسط أعشاب كثيفة. كان يمسك بسهم ويترصد لسرب غزلان رشيقة تتقدمه أنثاه ذات القرون المصقولة. إحساسي يقول بأن هذا الراعي خسيس فهبطت إلى الوادي وأرعبته فقط ببضع سهام تعمدت أن تخطئه بالكاد.

هو الآن يقف أمامي مذعوراً، مرتجفاً، يتصبب عرقاً، منكس الرأس، ورمحه الهش يهتز في يديه. انتزع الرمح من يده بسهولة وأرفع به ذقنه. هذا الوجه المحمر خجلاً صورة طبق الأصل من وجهي القديم. جسدي في ثياب راعٍ بالية. ماذا يحدث هنا؟

- انتظر مجيئك منذ عصور. سأكون دليل انتصارك. سأكون عينك الساهرة. كنت أحرس غزالك الشارد من القطعان المفترسة وحدي كما ترى. أما وإنك قد حضرت فأنا أتنحى عن واجب الحماية وأكتفي - إذا سمحت لي - بأن أكون تابعك المطيع، الحقير.

صدقته وأركبته خلفي على الحصان. انطلقنا نحرس سرب الغزلان. ربت الراعي على كتفي وقال:

ـ اعلم أنـك قد تخـطيت امتحـانـك الصعب بنجاح عندما وثقت بكلامي. ولكن دعني أنصحك، في المرة القادمة لا تحكم على الظواهر ودع أحاسيسك تقيس مشاهداتك بتأنٍ.

كان القطيع يتبع أنثاه الملكة بطاعة عمياء يأكل ما تأكل، ويشرب من المنبع نفسه، ويعاف ما تتركه حتى ولو كان شهياً ومغرياً.

كنا نحتفظ بمسافة طمأنينة حتى لا تصاب بالفزع، وكنت أمارس فعلاً غبياً لا أعرف سببه، كنت أتحاشى أن يلمحنا القطيع، أنثاه بالذات..

وتركت القطيع يرعى على هواه، راقبت تنقله السريع الذي لا يتعدى الدقائق، أعجبتني لحظات شروده إلى اللذة. تمنيت لو كنت فرداً منهم. لا أحفل بتعاسة الحياة التي لوعتني. تمنيت أن أكون ذلك الوعي الصغير الشاذ في القطيع، ذلك الوعل المحتمي خلف الأنثى/ الملكة/ القائد.

دخل القطيع أحراجاً برية. امتعض وجه الراعي وبت أسمع صوت بلع ريقه القوي. هنالك مجموعة ذئاب وحشية تتجول منفردة في الأحراج تطارد فلول الذباب وعلى وجهها الغدر، لست أخشاها. هنالك بجع بالقرب من مستنقع آسن تتوهم أنه منجم من الماس تحرسه من الطامعين، غير مؤذية. هنالك طاووس ينشر ريشه الملون على شجرة جدباء لا يسمح لأحد بالاقتراب ظناً منه أنها ستطرح له لؤلؤاً وجواهر ومرجاناً.

هنالك نعامتان تتشاجران حول شجرة حرام من منهما تأكل أولاً، ثم تتصالحان لتدخلا من جديد في جدال عقيم. هنالك نمور تموه بجلدها جاهزة لابتزاز ضحية جديدة خلف الأغصان الكثيفة. هناك طيور تقول إنها تنتمي للجنة ترتعش خائفة من حتف الصواعق. هنالك شجيرات كثيرة من كافة الألوان والأشكال والأحجام. هناك زهور جميلة وأخرى قبيحة لم ترها عيني قط. هناك كثبان رملية للمغامرين في حياتهم. هناك كثبان من جواهر نفيسة للطامعين، وأخرى مائية لمرتادي الأوهام.

ما هذا؟

خليط من الجنة والوهم أم شرور نفسي وتناقضاتها؟ لا أدري.

أيقظني الراعي اللعين من غفوة أحلامي ليقول:

ـ ما تراه ليس الخطر. أبداً فهناك الكثير من هذه الأصناف أمامك ولا تراها. كل شيء يظهر لك في الوقت المناسب. بعضه يمكن تفسيره بسهولة، وبعضه يستعصي عليك فهمه الآن ولكن التجربة اللاحقة تمكنك من استحضاره إلى ذاكرتك وتبيان تفاهته، وبعضه لقيط لن تستطيع فك رموزه. الخطر يأتيك من نفسك.

.. ثم صمت.

كأن الكلمات قد نفدت من فمه. أي خطر هذا الذي يتحدث عنه الراعي الأبله؟ بأي القوانين تعمل النفس في هذه المفازة؟ كل أسباب الخوف متوفرة ولا يسمح لي بانتقاء أشدها.

يا للكارثة لقد اختفى القطيع ونحن في غمرة مناظراتنا تباً لك من راع يفترض فيه أن جفنيه لا يغفلان. هناك احتمال واحد فقط لهذا الاختفاء المفاجىء، أن يكون القطيع قد تفرق وهو يتفيأ.

بحثنا طويلاً بين الأحراج. فتشنا الأشجار، أغصانها وجذورها. فرغنا البحيرات والمستنقعات من سوائلها. استجوبنا الحيوانات والحشرات. توسلنا السماء وتوعدنا الأرض. لم يعلم أي كائن قابلناه أين اختفى القطيع، وماذا حل بأنثاد.

كلهم أجمعوا على أنه لم يحل بالمفازة ما نبحث عنه. أهو السراب الذي نبحث عنه؟ هو الوهم حتماً. قال الراعي:

ـ معركتك ليست مع هؤلاء المستضعفين. كلهم كما ترى إكسسوارات تعطي للمبارزة المنتظرة نكهة، مجرد نكهة. لنبحث عن الأنثى قبل أن يظفر بها غريمك.

لو كان الأمـر بيـدي لقـذفت بهذا الراعي اللعين في أي مستنقع أصادفه، وأبحث كالمستبدين عن القطيع في المفازة. أسفك الدماء غير آبه بطهرها، أستبيح الحرمات وأشتت الأرحام.

أقلب أرضها رأساً على عقب. أقتلع حرثها. أزلزلها ألوث سماءها. أغتصب طيورها. أفتت غيومها حتى تحرق الأخضر واليابس يجب أن أجد الأنثى هي التي تهمني وسحقاً لباقي القطيع.

ـ معركتك المصيرية الحفاظ على الأنثى.

أصمت يا راعي النحس فأنا أعلم ذلك. لا داعي لأن تخبرني. هي جولة جديـدة حتى أظفـر بالأنثى، التي هو نوارة. أنـا الوعـل الصغير المشاغب وباختياري هذا المنفى وضعت نفسي أمام نهاية مبكرة.

أريدك يا نوارة ملكة تتربع على عرش القلب، ولا أريد أن أفقدك. أعلم أنني في هذا المنفى لا أعني لك شيئاً. مجرد فارس عابر على هامش زمنك المغبر. فارس له فرصة واحدة هي الحيلولة دون وقوع أنثى الغزال فريسة. واصل الراعي إفادته:

ـ غريمك فارس مثلك يحمل دماً قانياً من فصيلتك. وجهه خالٍ من النوايا والشرور، وقلبه المخفي معقل للغدر.

يا أنثاي..

يا أميرة المفازة..

يا خيال اللحظة، ولحظة الخيال..

أعلم أنك تختبئين في ثنايا الزمن محتمية بفتات الوقت. أعلم أنك أصبحت ترتابين في جلدك، في قرونك، في حوافرك، في أنفاسك أيضاً. إذا كنت تهربين من قدرك فأنت مخطئة. أنا قدرك المحتوم يا نواره. أنا قدرك الحقيقي وغير ذلك سراب.

نوارة..

يا أنثاي..

اظهري من مخبئك واستظلي بظلي. تحته لن يصيبك أحد بشر، ومن دونـه تغـدو المخابىء لعبة استغماء ساذجة يعافها أطفال هذه المفازة. اظهري بحق الحب الذي يقودني قبل أن أفتك بهذا الراعي الذي ابتليت بصحبته.

نوارة..

يا أنثاي..

الوقت يمضي سريعـاً، وسيعـريـك ان آجلاً أو عاجلاً، جاعلاً من كبـريـائك وعظمتك أضحوكة يتلقفها أعداؤك وحسادك. هيا لا تضيعي الفرصة واظهري.

في هذه الأثناء يطل فارس في ثياب بيضاء يبدو أنه لم يسمع ندائي. يعتمر قبعة حمراء واقية عن أشعة الشمس. يركب فوق حصان بني اللون لامع يتقدمه وعلان بريان مرقطان بالبياض، أحدهما مطيع ينظر لمجرى الطريق والآخر مشاكس ينظر دائماً للحصان المتحدي.

فارس مثلي، حائر، معذب، قلق.

فارس يجـوب المفـازة بحثاً عن لغز، مفتشاً عن إثارة. هل يبحث الفارس القادم من العدم عن لغزي؟ هل هو غريمي؟ لا أعتقد ذلك. هذا الفارس تخطاني ولم يكلف نفسه عناء النظر. من هو هذا المتعجرف الذي يجاهد كي يبدو فارساً رضياً؟

قال الراعي:

ـ حدث ماكنت أخشاه. تقول الروايات بأنه إذا تقدم الوقت وضاعت الثواني والدقائق هباءً منثوراً، يتهيج الزمان ويتقيأ منافسين أشداء بغية اختصار المسافة.

احتدمت الحلبة فعلاً بالمنافسين. صرت أخشاهم أكثر من خوفي من خصمي. ستتزاحم الحلبة قريباً، عندئذ ستتعقد المهمة ويتضاءل الأمل بالظفر واللقاء. اتضح لي بأن الراعي ما هو إلا ببغاء في جسد أدمي يردد كلمات لا يفهم معناها في أوقات محددة له سلفاً. تابع لا يجلب النفع عند الحاجة ولا يدرأ عنك الخطر.

فكرت في التراجع والهرب من مواجهة نفسي ولكن وجدت كل شيء يعيرني بهزيمة مشينة، قادمة دون نزال. هذا ليس عدلاً على الإطلاق. كيف أحارب خصماً في ظل ظروف غامضة وغير متكافئة؟

أصبحنا وحيدين، كان الفارس المتعجرف قد مضى مبتعداً يستكشف باقي المفازة بجد. لم نعد نبصر غير فعل الريح الهبوب على أغصان الأشجار وتعاقب الليل والنهار المجنون. ساعة نهار تعقبها ساعة ليلية.

قال الراعي بشفقة:

ـ أنت تهرم بسرعة يا سيدي ويبدو أنك لا تريد أن تكبح شرور نفسك. افعل شيئاً حتى لا تجد نفسك أمام كتيبة فرسان تنكل بك.

يظهر في هذه اللحظة فارس جديد مترجل ذو قبعة سوداء مثلثة وبنطال فضفاض يصوب قوسه نحو فارس آخر أعزل ذي قبعة طبقية، يبدو أنه يحمل رسالة مهمة.

اكتشفت متأخراً أنه لا يمكنني التدخل في هذا النزاع غير المتكافىء والذي انتهى بمصرع بشع للفارس المترجل المسلح. كنت أعتقد بأن الوضع معكوس، لذلك حاولت التدخل لصالح الفارس الأعزل إيماناً مني بأنه مظلوم.

غريبة أحوال هذه المفازة.

أنـا والراعي نسـير في خط واحد، وفي خط متواز يضج عالم آخر بحـوادث وغـرائب تشدني. حدثان متوازيان ينتهيان إلى غنيمة واحدة. وكنت أتساءل...

هل الكائنات في الضفة الأخرى تتميز بقدرات جديدة غير متاحة لي في هذه الضفة؟ وماذا عن الأنثى؟

خرج الراعي عن صمته ليقول:

ـ وحدها تتمرد على القوانين وتبتدع نواميس جديدة. تمتلك الهرج والمرج. تنقل الارتباك بين الضفتين وتستمتع بالمشاهدة. ربطناه في شجرة وارفة الظلال. تركناه يرعى من العشب الشيطاني ويشرب من بحيرة الخمر الخضراء. غط الراعي في نوم أبدي بينما كنت أتسلق الشجرة بحثاً عن ثمار تصلح لإسكات المعدة الجائعة.

وأنا على قمة الشجرة رأيت فارساً يرتدي ملابس الحرب السوداء، يدخل البحيرة من جهة الأحراج ويغوص محاولاً إطعام حصاني الأبجر من حيث لا يدري أسماك الهزيمة الشفافة.

كنت في وضع هجومي فريد. في يدي رمح الراعي، أطير في الهواء لأهوي على ظهر الفارس الأسود قاصداً جهة القلب.

ضربت الحقيقة..

كادت صرخته الأسطورية تشق تماسك ذرات الخمر. كادت الصرخة المدوية تفتتني. دخلت في صراع مرير مع ثيابه السوداء التي تحللت عن جسده لتنتقم من مصرعه. لم تفلح. كنت محاطاً بعناية الأسماك صغارها وكبارها، وبالطحالب الخضراء الرقيقة المسالمة، وبمعشر المرجان وشعابها الشهمة.

كلهم كانوا يدفعونني للسطح في موكب فرح جميل. كنت منهكاً ولا

أدري إن كانت هي زفة النصر أم مسيرة الهزيمة. سبحت في جدول ضيق ماؤه عذب..

وأخيراً وجدت نفسي بين تشققات اللافتة الرخامية متعباً، متقطع الأنفاس، أنتظر من ينتشلني. وأنا أبحث عن منقذ اكتشفت بأن بقية المغارات قد اختفت كلها. لم تعد هناك لافتات. أين لافتة المعول، والقلب، والفم، والدم؟ أين لافتة الجمجمة النخرة التي خشيت أن تكون أول محطاتي؟

•



التتويج

كنت أغتسل في الماء النقي متناسياً مرارة الأحداث الماضية.. لم أكن وحدي. أبصرت نوارة الحبيبة بجانبي وهي التي تحممني. كنت سعيداً أستمع لتهكماتها القديمة على كرهي الاستحمام بالليفة والصابون. هذه المرة لم أتذمر كما في طفولتي، تركت لنوارة كامل الحرية.

ما أروعه من استحمام إنه أروع بكثير من الاستحمام مع الحوريات الفاتنات، الماجنات. نوارة تطهر القلب مع البدن. تزيل الحقد مع الأوساخ. تخرجني نقياً من الداخل، ونظيفاً من الخارج.

كانت تستعمل ليفة خاصة تزيل من خلالها أثر السواد وبقايا الدم، وشظايا الرماح، وثقوب السهام. كانت تداوي جراح المعركة المريرة.. آه.. المعركة. ماذا حدث؟

تكلمي يانوارة، ماذا حدث هناك في مفازة الحياة؟ أرجو أن لا أكون قد خدعت وسلب مني انتصاري. أرجو أن لايصنف انتصاري كابوساً متقناً من صنع خيالي. ببراءة توجهت إلى نوارة التي كانت منشغلة بتنظيف جسدي:

- لماذا أستحم؟ أنت لاتحممينني بهذه الأناة إلا يوم العيد. هل هو العيد قادم؟

ابتسمت نوارة وقالت:

- صدقت إنه يوم عيدك. يوم الاحتفال الكبير بانتصارك الباهر. لقد فعلتها يامشاكس وغلبت جحافل شكوكك ونكلت بأوهامك ودهست شرورك. لقد انتصرت وبات عليك أن تستعد للمواجهة الحاسمة مع أخطاء الماضي. لاتخف ياصغيري إنه مجرد ناقوس يدق ليذكرك فقط. ستكون في محكمة أنت فيها المتهم. سأجاهد كي تكون القاضي والجلاد أيضاً، في جلسة صورية قد تفيدك في رحلتك المرتقبة إلى المستقبل.

عن أي مستقبل تتحدثين يانوارة؟ مستقبل لايجمعني بك في بقعة واحدة لن أهلل له. تباً للزمن الذي يفرقني عنك. مغامراتي ومعاركي التي خضتها كانت من أجل استردادك. لم ولن أسعى لأمجاد شخصية. تاريخي الماضي سجل مؤلم، قاسٍ، مليء بالقهر والعذاب فلماذا نعيد قراءته من جديد؟ تاريخي محن طاحنة، وانتكاسات، ونزاعات قبلية. تاريخي وصمة عار بدونك يانوارة. أمنيتي أن أنسخ تاريخاً جديداً يبدأ حيث وجدتك وأصبحت مليكتي. تاريخاً يبدأ من هذه اللحظة الجميلة.

عجيبة هي نوارة التي كانت تمارس طقوس تنصيبي زعيماً فريداً دون أن أشعر. ألبستني في غمرة الثرثرة ثوباً صيفياً ناصع البياض، فضفاضاً مطرزاً بخيوط ذهبية عند الياقة وأطراف اليدين، وغترة شال جديدة. منطقتني بخنجر ذهبي، ثم ألبستني عباءة سوداء.

ضمختني بالعطور المحلية ودفعتني أمامها. مشت نواره خلفي ممسكة بمبخر يملأ المكان بالدخان الطيب الرائحة.

اخترقنا جدران بيتها وخرجنا إلى عالم ليس مظلماً. هي نفسها الحارات. هي نفسها البيوت. هي نفسها الطرقات، ولكن الجو يختلف. خرجنا حيث السماء ملبدة بغيوم وردية واطئة. سمعت صوتاً طفولياً أعرفه، إنه صوت صديقتي في أيام الصغر تنشد خلفي أبيات شعر مقفاة:

الحمد لله الذي هدانا

للدين والإسلام اجتبانا

نحمده حمداً كثير العدد

كانت نوارة مبتهجة وهي تجر معها أناساً كثيرين أغلبهم من النساء والأطفال، وكانوا يتكاثرون كلما نفتح حارة جديدة أو نتوغل في زقاق، ويرددون بحماس بعد كل مقطع تنشده صديقتي «آمين». كانوا يتكاثرون ونحن نجوب كل البقاع بدون تعب.

صديقتي تنشد ختم القرآن بينما يطاف بي الأحياء ليجودوا علي بالمال أو الطعام. المال يتوزع على جيوبي، والطعام يتكوم عند نوارة في خيشة أرز تتوسط عربة يدوية مزركشة يتناوب الأطفال في دفعها. دخلنا بيوتاً كثيرة، حقيرة، وكبيرة، ودائماً كان هناك نسوة عجائز يحضنني ويقبلنني على وجهي وهن يقلدنني عقوداً مرصعة بالمشموم والياسمين.

نوارة لاتعرف ماذا تفعل من شدة البهجة تارة تلمع خنجر الختمة في خصري المعار من بيت أحد الشيوخ. وتارة تمسح عن جبهتي عرق

النسوة العجائز وبقايا اللعاب من أثر القبل. وفي كل الأحوال أحس بقبضة نوارة تشتد على ساعدي الأيسر تثبت خطواتي على الأرض حتى لا أحلق عنها عالياً.

كرنفالك رائع يانوارة، ويثير في نفوسنا البهجة. فلتعلمي يامحبوبتي بأنني قاطعت حفل ختمتي بسبب غيابك المر. وها أنت الآن تعوضين مافات بحفلة كبرى أشبه بالعرس.

لم أعرف أن النهار على وشك نهايته إلا من تفرق الجموع. فقد تعبت النسوة من المشي والتقاط ما يسقط من جيبي ومن العربة الخشبية، وتبعثرن تدريجياً على الدكك الإسمنتية ومنها تسربن إلى الأزقة. ضجر الصغار من روتين الكرنفال فانصرفوا هم أيضاً إلى متع شقاوتهم.

انفض الحشد من حولنا وبقينا وحيدين، أنا في المقدمة وأنت تتبعينني بالبخور.. تماماً كما بدأنا الكرنفال.

... وحيدين نمضي

وحيدين نقطع الطرق الملتوية بين الأزقة الضيقة إلى حيث لاتخبرني نوارة.. نوزع النقود على الفقراء في البيوت التي تصادفنا، نربطها في صرة قماش مشجرة نطرق الأبواب ونتركها معلقة على مقابض الأبواب ونختفي. نوارة تتكفل بالطعام. كانت تستغل ليونة ذراعيها فتضع وهي واقفة من مكانها كيساً مملوءاً بالأرز النيىء والفواكه مباشرة في الحوش. أي سعادة كانت تجتاحنا، لا نستطيع أن نصفها. هل تذكرين يانوارة عندما كنت تقولين في الماضي..

«لا سعادة كسعادة الفقير، ولا فرحة كفرحة اليتيم».

كم أنت رائعة يانوارة..

كانت وهي تقودني إلى مشتهاها ترمم البيوت القديمة وتصبغ واجهاتها المهترئة بلونها المفضل، الفضي. كانت تضيف بخفة يديها لمسات

جمـاليـة للمنـزل الذي تكن لأصحابه معزة خاصة. كانت تبلط الطريق برجلهـا، تمسـح على الحفـر وتفتت الصخور الناتئة وتسحق البالوعات المرتفعة عن سطح الأرض.
أيتها الإمبرطورة..

كم أنت كريمة.. كم أنت رحيمة.. كم أنت عطوفة مع رعيتك الذين يغطون الآن في سبات عميق. صحيح مع أنهم في غفلتهم المؤقتة ولكنهم عندما يستيقظون سيرتلون الدعاء في مدحك، والرجاء من الله بأن يمد في عمـرك. ليتني أمتلك الشجـاعـة حتى أوقـظهم ليشهدوا معجزتك التي تسخرينها لسعادتهم الأبدية.
أمضي خلفك مسحوراً..

أنتظر أن أشاهد بشائر سعادتي، أنا الذي باسمه خضت أسمى المعـارك. أنـا الذي حطمت عرشـك من أجل نزهة متواضعة كهذه التي تخـوضينهـا الآن. أنا الذي ترك لك حرية اقتياده دون أن يتفوه بكلمة معارضة. أنا أنتظر منك معجزتي الخاصة.
هل هي قادمة؟ ربما؟

أراك تسلكـين الطريق إلى بيت العـائلة. أراك تحثين الخطى نحو مملكتك التي هجرتها. ماهو السر الذي يجذبك للخرابة؟ لقد اقتربنا وبت لاتلتفتين كثيراً لترميم البيوت، وتوزيع الأرزاق. أرى لهفتك نحوي تتأجج. تحملينني على كتفيك استعداداً لمراسم الاستقبال الملكية، ربما.

سنعود إلى نقطة البداية. سنعود إلى الخرابة ملتمي الشمل بعد أن غادرناها فرادى، وحزانى، وخائبي الأمل. سنعود منتصرين، رافعين لواء الحرية.

أين اختفيت أيها المسمى ظلاماً؟

أين توارت عتمتك التي كانت تتشدق بالعظمة والجبروت الزائف؟
أيها الظلام هذا يوم هزيمتك النكراء.

اذهب وتفقد مخلوقاتك الجريحة، إنها وحدها تعاني من مرارة الهزيمة بعد أن هربت. كانت قوية ومهابة فقط تحت جناحك. كانت فتاكة تحت ردائك. كانت بهيمية وهي تهتف من وراء ستارك للخائفين أمثالي. كانت جبانة متسترة تحت خوفنا. كانت تنفث الزيف وكنت أصدقها بمحض إرادتي.
أين أختفيت أيها الظلام؟

مخلوقاتك المخلصة لاتستحق منك هذا الإجحاف. ماذا كان سيكلفك لو أطلقت عليها قبل هروبك رصاصة رحمة؟ بضع كلمات قليلة قبل التراجع ستكون بمثابة الدواء على الجرح. ماذا يعني الكبرياء في محنة كهذه؟ أي كرامة جوفاء تمنعك من إنقاذ حلفائك وقت الشدة؟ مخلوقاتك التي انتحرت قبل المذبحة أدركت كم أنت مخادع وأفاك.. أيها الظلام الناكر لجميل أعوانك قد حان دور انقشاع غمتك. ها نحن قدمنا للمبارزة الندية. مامن سلاح مميت وفعال لدي غير نوارة، ضحيتك الذبيحة فهل تذكرها؟ تلك التي غرسوها في مخابئك طويلاً مع أكاذيب وتهم ملفقة. تلك الضحية التي لم تستسلم للموت، أو الذل أو الوهن. ظلت شامخة رغم الهوان تستذكر دروس القهر والنكاية استعداداً لمثل هذا اليوم المجيد.. أنت لا تتذكرها ربما وأنا ألتمس لك العذر في هذا. كثيرون سحقتم بدون تهمة وتلذذت بآهاتهم وهم يطلبون منك المغفرة أو سماع دفاعهم.

ستلقنك نوارة الدرس الأخير، القاسي. درساً واحداً إدخرته في سنوات القمع وباتت تتقنه أكثر من أي شيء آخر. لن يقف في طريقها أي عائق بعد أن تحققت أمنيتها العزيزة وظفرت بلقائي. ستكتشف أن قلب

نوارة عاد غير ذلك القلب الرهيف، المسالم، قلباً صلباً لايمت بصلة لذلك القلب الذي سحقته دون رحمة تحت ثقلك.

أين هربت أيها الظلام؟

أيها الجبان، المقنع بوهم كبير اسمه الفزع..

كان صوتي يرتد بعد أن يصفع الأبواب الخشبية، والحيطان وأشجار النخيل العارية. لم تعد هناك فائدة من الصراخ، فقد ارتفع الظلام إلى السماء حيث يلقى معاملة خاصة، واختفت بقاياه بين شقوق الجدران الطينية، وفي البقع المهجورة وترك العشرات من الأدلة الدامغة على خيبته ظاهرة للعيان.

دثرت نوارة نفسي بالصمت. أعرفها جيداً لاتلتفت للخونة المنسحبين من منازلتها. لاتغدر أبداً بمن يلوح براية الاستسلام نوارة ذات القلب الكبير تقتص فقط من المتمادين في طغيانهم.

نوارة الآن في قمة سعادتها..

وصلت قصرها الذي لاتستغني عنه. من هنا كانت بداية المغامرة، ومن هنا يبدو أنها ستنتهي. الخرابة، مازالت في نظري المملكة التي لاتليق بإمبرطورتي. الحقارة كما هي لم تتغير. القذارة سمتها المميزة. الدخان أيضاً لم ينهزم، ظل كثيفاً لا يرتفع عن مستوى الأقدام. دخلت نوارة الخرابة وهي تتلو الكلمات المبهمة، بادئة بالقدم اليمنى. الكرسي أيضا كان موجوداً هذه المرة يتوسط الخرابة مواجهاً لجدار كبير لبيت مجاور مطلي باللون الأبيض.

شتان بين ذلك الموقف المرعب وهذه اللحظة المطمئنة. تنزلني نوارة على الأرض وتدفعني بلطف للأمام. لاأستطيع التقدم خطوة واحدة. مملكتك يانوارة رغم حقارتها الظاهرية تبهر روادها بالدفء الطبيعي. لاأدري ما هو السر الكبير خلف ابتسامتي المفاجئة؟ ولاأدري لماذا تقدمت

نحو الكرسي بإرادتي؟ أهو دفء المكان وحميميته؟ أهي نوارة تمارس طقساً ابتكرته للخطوة الأخيرة؟ كلما اقترب ألعن اللحظات التي كنت أخاف فيها من الخرابة وأحتقرها. وضعت اللوم سريعاً على الظلام. تأكد لي بأنه العقل المدبر لكل المؤامرات التي مرت عليّ، وهذه إحداها.

اكتشفت وأنا في طريقي إلى الكرسي أن المنطقة نظيفة تماماً. العشب الأخضر الطري يتوزع حول الكرسي بطريقة هندسية بديعة. كل الأوساخ التي كنت أنفر منها من قبل نبتت مكانها أزهار زكية الرائحة ورياحين زاهية الألوان. ما أشاهده كرنفال ألوان وقوس قزح بحق.

لك الحق يانوارة في أن تتمسكي بهذا النعيم الذي هو جنتك الخالدة. وأنا كنت المغفل لأنني أغمدت سيوف الشك والريبة في دعوتك الأولى فاعذريني وكوني بقربي. أيقظتني نوارة من سبات أحلامي قائلة:

ـ قد حانت اللحظة التي تتمناها ياأميري الصغير، قد حانت لحظة الفرح والاغتسال بماء الحقيقة. تذكر ياولدي أن أعرق اللحظات ما كان بدايتها مقلقة، هذا الكرسي المتألق عرشك وحدك. ماعاد يتسع لمؤخرتي، ولاجسدي المنهك مؤهل لأن يسترخي عليه ليمارس سلطته. هو كرسيك الذي حافظت عليه لحين عودتك. هو كرسيك الذي قاتلت من أجله وحوشاً تفوقني ضراوة. هذا هو كرسيك وهذه هي مملكتك الشاسعة تبايعك من خلال هذا الدخان الصديق.

في هذه المملكة لايحق لك أن ترى أتباعك، لايجوز أن تخلع أصولك الملكية من أجل رعية لايتقنون إلا فنون النفاق. لايصح لك إلا أن تكون إمبراطوراً شاهقاً يرى مملكته من طرف عينيه. تقدم يا صغيري ولا تخش شيئاً. أنت هنا محاط برذاذ الطمأنينة. أنت هنا محروس بالعناية الإلهية. أنت هنا الآمر الناهي. السيد المطاع صاحب اليد الطولى. بيده ناصية الكلام والختام. أنت هنا الملك الذي سوف يتوج بعد لحظات.

افتقـدت خطواتك المضيئة يانوارة تنتشلني من صعوبة الحركة. بالكاد أخطو ونظراتي تتركز على الكرسي الذي لم يعد حقيراً. كلما اقتربت أبصره أخاذاً. تارة ألحظ قوائمه التي تقزمت إلى كتل ذهبية صغيرة، وتارة أدهش لصورتي المنقوشة على المسند بإتقان والتي تتضح كلما اقتربت. وقفت الآن على حافة الدائرة الرملية. هي مسافة دهر ومستحيل. ألتفت إلى نوارة التي همست:

- باق على تتويجك لحظة واحدة فلا تتردد. من حولك طامعون يبثون في نفسـك ريح الشكوك فلا تذعن لهم. مملكتك تعج بطابور خامس من الخبثاء يروجون لرعيتك السذج ضعف بأسك فلا تمنحهم هذه الفرصة الجهنميـة. هذا الكـرسي مصمم لجسـدك، لتضاريسه الفريدة. فأمض يافتى وقاتل من أجل أن تتملكه لتتملك الحقيقة. لتتملكني.

حديثك يانوارة له مفعول السحر. لم أدخل جنون المغامرة إلا من أجلك أنت. لم أروض الخطر وأجازف بارتياد المجهول إلا لكي أجعلك بين ذراعي حمامة تناجينني. أنت هي المغامرة. تباً للمملكة، وللرعية الخونة، والطامعـين، والمتسلقـين، والمتـآمـرين، والخبثاء. تباً لكل شيء، السلطة والجـاه، والجبـروت، والكبـرياء. تباً للعرش الذي بصدد اعتلائه إن لم تكوني أنت الغاية.

مغامرتي المجنونة كانت من أجلك..

فدائي بروحي العزيزة كان من أجل حياتك..

وهـذه المملكـة التي تسعـين لتنصيبي على قمتها هي في الأصل مملكتـك التي أدرتها بالحزم والحب، بالقوة والتسامح بالسخاء والفداء، فلماذا تريدين أن تهدمي هذا الصرح العملاق بتنصيبي؟

حسناً يانوارة سأنفذ ماتطلبين مني مادامت هي أمنيتك، وما دمت سأمتلكك إلى الأبد. لا أريد أن أغضبك في أروع لحظات عمرك. أريد لك

مكاييل غير مقدرة من السعادة والفرح. أريدك أن تكوني وزيرتي الخاصة. لن أقبل أحداً غيرك يقيم مراسيم التنصيب. اطردي الخاصة قبل العامة من بلاطك، اطردي حيواناتك المدللة الحريرية ومارسي طقوسك المقدسة في خلوة وهدوء. أليس هذا رائعاً؟

أضع رجلي اليمنى في الحلقة الرملية، ثم اليسرى التراب لايجرى. هذا تراب له نعومة الماء وإحساسه، كانت نوارة خلفي تلملم دهشتي على مهل وتغرف من التراب الذي يتحول في طاسة برونزية إلى ماء مذهب له رائحة الزعفران العطرة. غسلت أولاً وجهي فتحللت الأوساخ وتفتت تعب السنين الماضية. مسحت على شعري فتحول لونه إلى الأحمر. حان الآن دور جسدي. طهرت الأماكن الظاهرة فقط ليسري السائل الذهبي إلى الأماكن المستورة.

كانت عملية تلبيسي حكاية خرافية أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة، هبطت مناشف ملونه، مطهرة، وناعمة تلوّت على جسدي تجفف الرطوبة ثم تحللت بعد أدت مهمتها. جاءت ملابسسي طائرة من كل الجهات، الأصلية منها والفرعية، وكنت أرتفع في الهواء بفعل قوة خفية ولا أتحكم في عضلات جسدي. جسدي الذي أصبح يدور حول نفسه في حركة تناغمية، كأنه في حالة رقص رومانسية. آه ما أجمل مملكتك يانوارة، مملكة السحر والعجب.

فضاء مملكتك البديع كان غطاء يستر عورتي بغيوم وردية قطنية، فلما انتهت مراسيم الإلباس حرض نجومه المضيئة وهيجها لتبسط بريقها حولي. كانت هالة آخاذة صاحبتني في الختام عندما هبطت قاعداً مباشرة على الكرسي الملكي.

كانت نوارة خلفي، خلف الكرسي تمد يديها المطاطيتين وتمسد ذراعي كجرعة طمأنينة. كان رأسها يطل من أعلى الكرسي كالشمس

الزاهية، تحرق بؤس حياتي. ابتداءً من هذه اللحظة سأعيش ترف الملوك، ورغد الملائكة.

أنظر أمامي وأحس برهبة حشد لاأرى أي علامة على وجوده. أسمع صيحات مدوية تهتف بحياتي وإشاعات تشكك بسلطاتي.

هدايا كثيرة تتقاذف أمامي دون أن أشاهد أصحابها، أتفهها صناديق مجوهرات براقة. هناك بالتأكيد في هذا الجو الكرنفالي المشحون نساء ثريات يبتغين وصلي، وهناك قوادون في ثياب محترمة يقدمون بغاياهم على أنهن صديقات محترمات وهناك رجال أعمال اعتادوا ابتزاز الفقراء يلوحون بمشاريع وهمية، وأمراء من شتى المناطق حضروا ومعهم معاهدات صلح غادرة. أحس بالضوضاء والصخب والحيوية أمامي وفي بلاطي ولكنني لاأرى أحداً وهذه الأعجوبة من صنع نوارة حتماً.

أنا أحميك من مكر هؤلاء، ومن فتنتهم، ومن خبثهم، ومن خداعهم ومن لؤمهم. أنا أحميك منهم، ومن نفسك فلا تندفع للرياء والتزلف. والله لو رفعت هذا الحجاب الساتر بينك وبينهم ماسلمت من مكائدهم. والله لو فعلتها لاأجد حتى عظامك. يجب أن يحسوا بك ملكاً، حاكماً، متغطرساً، متجبراً، متسلطاً، تحسسهم بظلمك العظيم.

ليذهب إلى الجحيم أعداؤك يانوارة. لتذهب حيلهم الشيطانية إلى سمائهم تشويهم. لك السمع والطاعة يانوارة. لك الحب والمجد. لك القلب الذي ماعندي أغلى منه كي أحفظك فيه عزيزة، تنعمين بالكرامة.

وأهتف بالرعية بأعلى صوتي:

.. أنا الملك

.. أنا المهيب

.. أنا لسانكم، وأنا عينكم

.. أنا الطقس، والماء، والهواء

.. أنا الدنيا ، والدنيا أنا

.. أنا الملك قد وهبت صاحب المهابة قلبي إلى سيدتكم الأولى ، أمكم نوارة فاهتفوا باسمها على الدوام تدم نعمتكم . حبيبي من يحبها وتحبه ، وعدوي اللدود من يكرهها وتكرهه .

بعد لحظات ستتم مراسيم التتويج . كل الدلائل تشير إلى ذلك حماس نوارة التي باتت تعدل تسريحة شعري ، تزايد صخب المدعوين ، وصول عامة الناس بعد سماع بوق المنادي ، كنس المدعوين الأرض والسماء من الشوائب والطفيليين ، استطالة أرجل الكرسي المباغتة ، استدارة نوارة لثيابي الفاخرة ، امتلأ المكان بالدخان الذي تمرد على مستوى الأرض ، وخفقان قلبي من وقع خطوات قدمه تدب على الأرض بقوة وثبات .

قالت نوارة مهدئة :

- لاتخف أيها الملك السعيد، إن حظك قادم يبشرك بإقامته الجبرية والطويلة معك. منذ زمن لم يلازم أحداً وهو قادم هذه الليلة ليكرمك ويجلب الخير لملكتك.

سمحت لي نوارة بأن أسمع قليلاً هلع المدعوين من القادم الذي يحمل التاج الملكي، وتساقطهم الواحد تلو الآخر. أزاحت أصابعها قليلاً عن أذني لأسمع وقع أقدام أشبه بالزلازل الأرضية. ارحميني يانوارة وامنعي عني هذا الصوت المهشم. لاأريد أن أسمعه، أريد أن أراه، هذا السعيد الذي يهبط على مشتهاه، هل أشاهده ولو من بعيد؟

نوارة تدخل عقلي وتقرأ أمنياتي القريبة والبعيدة. ألمح من بعيد ملامح مارد عملاق له وجهان واحد مضيء جميل، والآخر معتم قبيح. جسده مليء جهة الوجه المضيء بوميض القبلات الحارة والمديح لكنه متخن

بالجراح والبصاق واللعنة من الجهة الأخرى. كلما اقترب من الكرسي ذاب وجهه المعتم ليغتال دمامة لاتطاق.

قالت نوارة:

ـ إنه هكذا يحتفظ بوجه واحد عندما يقابلك. لاتعرف أيهما سيشمخ وأيهما سيذوب. أي عطية سيمنحك أو أي لعنة سيبتلي بها حياتك. وفي كلتا الحالتين لاترى وجهه. محظور عليك أن ترسم ملامحه في مخيلتك. ركز نظراتك على يديه، على عطاياه.

هو حقاً حظي السعيد قادم نحوي لايوقفه أحد عن أداء مهمته. إنه يحمل بين يديه الضخمتين وسادة مخملية حمراء وعلى أطرافها زركشات صيفية ملونة.

هذه المخدة المخملية تحمل تاجاً ذهبياً، بريقه الآخاذ يكاد يخطف الأبصار. نوارة ترأف بحالي وتسحق ذهولي وتمطر مارد الحظ بوابل من تمتماتها السحرية. أنا لا أراه كأن المخدة تسبح في الهواء بقوة خفية باتجاه العرش. كانت كلما اقتربت ازدادت برودة المكان. وارتفعت حرارة جسمي. تصل المخدة أخيراً وتهبط على التاج من السماء عدة نجمات فضية لتزينه. تتقدم نوارة مبتهجة بلحظة التنصيب المنتظرة. صرخت للحشد باكية:

ـ أيها القوم، أصدقائي وأعدائي، الذين توقعوا نجاحي، والذين تمنوا فشلي، الذين أفرحهم انتصاري الساحق، والذين حزنوا عندما لم تلح هزيمتي المتوقعة في الأفق. الذين حضروا إلى هذا القصر، والذين في الخارج وفي بيوتهم وتصلهم نغمات مكبر الصوت.

أيها القوم، فلتعلموا بأنني قد جمعتكم لمناسبة عزيزة وسعيدة على نفسي وعليكم أيضاً. ولأنه ليس هناك وقت للتخمين فسوف أقول لكم مباشرة أن هذه ليست مناسبة انتصاري التي نقيم شعائرها الآن.

لقد دعوتكم إلى هذا القصر لتحتفلوا معي بالملك الجديد، ابن نوارة الذي لم تلده من رحمها.

هو الملك الذي ستركعون لمبايعته المطلقة وطاعته العمياء، ومحبته الخالصة. هو الملك الذي ستقاتلون من اليوم وصاعداً تحت رايته العظيمة، وتقسموا أن تعودوا معها منتصرين. هو الملك الذي يفصل بيني وبينكم. هو المخلوق الوحيد الذي أخوله تعرية سنين القهر والحرمان التي عشتها معكم، وبسببكم. هو صاحب القرار الحاسم، الانتقام والعقاب، أو العفو والسماح.

سأسلمه أمامكم مفتاح المملكة وصكها. سأوليه مصائركم وأمنحه قوة الأرض بين يديه.

أيها القوم من يعترف بالذنب ويطلب الصفح منكم فقد كتبت له النجاة، ومن يتمادى في غية فقد سلم رقبته بين يدي سياف الملك، الوقت.

اصمتوا جميعاً. سوف أتوج الملك الجديد فأقرأوامعي نشيد المملكة بصوت عالٍ:

«الموت للوشاية.. الموت للأعداء.. يحيا الوقت..»

مسحت نوارة وجهها وتخلصت من بقايا الدموع، كانت دائماً تكره البكاء وتعتقد بأن الدموع خنجر مسموم يستقر بين الضلوع. تقدمت بخطوات وقورة نحو المخدة الملكية التي مازالت معلقة في الهواء، ورفعت التاج المتلألىء وسط صمت رهيب. أحسست في هذه اللحظة التاريخية أن عيون الحشد تتركز عليّ.

بيد ثابته لاتهتز، وببدن يكاد يكون جامداً تقوم نوارة برفع التاج لتضعه مباشرة على رأسي. انفضِ الصمت ساعتها. انطلقت زغاريد النسوة، أطلق الرجال صافرات الإعجاب، ولأول مرة يشارك أطفال المملكة غير الأبرياء بصيحات الفرح.

قذفت على المنصــة الملكية أزهار جميلة من شتى الأنواع شكتها عازبات المملكة. تنهمر تحت قدمي عقود من الياسمين والمشموم المحلي، وقطع معدنية ذهبية وفضية. هناك بهائم يسفك دمها في الساحة الأمامية ويـوزع لحمهـا على الفقـراء إكراماً لتنصيبي، وخيام تنصب تقام فيها مهرجانات خطابية وشعرية مبالغة.

تتراجع نوارة، أعرفك يانوارة. أقرأ في عينيك رغبة مكبوته في ضمي. هذا الحشد المنافق يمنعك لايجوز أن تضيعي هيبة ملك توج لتوه.

هذا التاج رغم خفة وزنه إلا أنه يثقل رأسي وينفث فيه زهواً مزيفاً سكبه على جمهور الحشد.

عادت نوارة لتكمل خطابها:

- والآن حان وقت الختـام. خذوا هداياكم ورياءكم وانصرفوا. لن نستقبل مهنئين من شتى الدرجات. لاوقت لهذه السخافات التي درجتم على ممارستها. أريد أن أخلو إلى صغيري الملك.

لابد أنهم انصرفوا. عدت لاأسمع أصواتاً أو همهمات. لابد أن نوارة استعملت طريقتها الخاصة في التخلص من جمهورها الفضولي الساذج بقينا أنا وهي وجهاً لوجه. هذه اللحظة التي انتظرناها معاً. نجتمع دون أن يقلقنا أو يكدرنا أي مخلوق.

نوارة تحملت الظلم والعدوان ثم الغربة من أجل هذا الموعد، وأنا ضحيت بعذوبة طفولتي من أجل أن تداويني في مثل هذه الجلسة الخاصة.

أنـا كلي لك يانـوارة فأفعلي ماتطيب له نفسك. أنا الآن ملك هذه الأرض ولكنك هنا ملكتي. أنا ملك على هؤلاء الأغبياء وعبد ذليل في حضرتك.

الوقت لنا..

الحب لنا..
السعادة لنا..
القوة لنا..

فماذا أنت فاعلة الآن؟ بعد تعب الحروب، لابد لنا أن نستريح، فماذا تقولين أيها القائد العظيم.

كانت نوارة مشغولة عن ثرثرتي بتهيئة المكان عند الحائط المطلي باللون الأبيض. كنست المنطقة الأمامية جيداً بعد أن أزالت النباتات والأزهار، وبقايا النحر والهدايا. قضت على الجفاف بأن رشت شراب الورد على التراب الناعم. وقفت أمام الحائط قليلاً تتأمله حتى ظننت أنها تحنطت. سافرت خارج المملكة وعادت بقطعة فحم تخطط مربعاً كبيراً في الجدار. قدمت نحوي تذرع برجليها مسافة معينة.
ماذا تفعل نوارة؟

لاأظنها فقدت عقلها. في جسد نوارة طاقة هائلة ومن المحتمل أنها تنفس عنها بهذه الحركات الرعناء. لا أدري هل انتهى الحفل أم أن مايجرى جزء من ملحمة قادمة؟ كل شيء جائز في قاموس نوارة السخي الذي لايضم كلمة «مستحيل» بين دفاته.

هي الآن واقفة أمامي أفك رموز حيرتها، هل يجوز أن تسحب ملكاً خارجاً تواً من حفلة تنصيبه إلى خط وهمي وضعته على الأرض؟ ظلت توزع نظراتها بيني وبين الحائط. يبدو أنها استقرت على رأي، ويبدو أنها ستنفذه فوراً. أمرت الحائط أن يتقدم قليلاً، وتوسلت الأرض أن تقضم نفسها عدة خطوات. لافرق عندي بين تلك المسافة وهذه. كلاهما سيان في نظري. سأترك نوارة وشأنها تتصرف كما يحلو لها.

يبدو أنك راضية يامحبوبتي الغالية، أخيراً تكرمت علي بابتسامة رضا. هذه بادرة مشجعة. تدنو مني نوارة بحذر وتقول:

ـ وصلنا إلى نهاية مغامرتك. سننصب فخاً للماضي المهمل. سأريك الماضي الحقيقي، وأنت كالمتفرج الأطرش لا يُطلب منك توضيح أو دفع اتهام، كل شيء ستراه حياً على تلك الشاشة. قد يكون الأمر عندك مسلياً وقد يكون مزحة سمجة من الأفضل أن تنتهي، وفي كلتا الحالتين ليس لديك من سبيل سوى الصمت.

قامت نوارة من جانب وابتعدت قاصدة الحائط. أخرجت من جوربها أو من الأرض ـ لست متأكداً ـ مسحوقاً فضياً شبيهاً بالبلورات ورشته في الحال على الحائط ثم ركضت مسرعة تحتمي خلف الكرسي، خلفي توهج المربع الذي حددته نوارة بالفحم الأسود وظل يقذف ألواناً صارخة على المكان لاتمت بصلة إلى جدها قوس قزح. ماهذا يانوارة؟ أهو كرنفال جديد؟ أهي ملحمة تبعث في عهدي الميمون؟ فضولي يكاد يحرقني وأنت واجمة خلفي. لا أصدق أنك القائد الأعظم يخاف من حفنة ألوان مسعورة.

بدأت تظهر خطوط أفقية غير مستقرة ثم تختفي لتظهر أخرى عمودية، ثم تختفي أيضاً. يدوي فجأة صوت عظيم مزعج لوشوشات أو أصوات تتعارك بهمجية. تتعاقب الخطوط من جديد حتى يعود الحائط هادئاً، وسطحه بلوري اللون. عندها تقوم نوارة من مخبئها الحصين راضية، تعدل من هندامها، وتسرح شعرها الغجري وتهتف للجدار بصوت توسلي:

ـ الفارس مستعد للمواجهة. إنه مستريح الجسد ولكنه منهك من الداخل ومحاط بفلول صغيرة من التوتر. قليل من الترويح يجعل قلبه مهيئاً لصدمة الماضي.

دبت الحياة في الجدار الذي أصبح شاشة سينمائية ملونة رأيت مغامرتي السابقة في مغارة الماء مجسمة بالحجم الطبيعي. كانت الشاشة تكبر وتصغر تبعاً لنوع الحدث. لم يكن للإطار دور مقيد فقد كان هو الآخر يتمدد مسايراً الأحداث.

رأيت الحوريات بتمعن. ياإلهي كن أكثر من حسناوات وكن يبحثن عني بشهوة في الأحراج، ويقتلن كل نفس لاتملك الجواب الشافي. رأيت حصاني الأبجر منكس الرأس وحزيناً قرب البحيرة ينتظر خروجي مضرباً عن الطعام والشراب. رأيت أيضاً الراعي الغريب الأطوار يبحث له عن مخبأ باستمرار هرباً من قناصي رحلتي. اكتشفت أن الفارسين المترجلين إنما هما صديقان حميمان دبرا أمامي مشهداً متقناً شباكه الإحباط. رأيتهما يتسامران حول سرب الغزلان وهو مشوي بالكامل. شاهدت انتصاري الكبير في المفازة على كل الوجوه وكأنهم كانوا يقدمون لي الإعجاب والولاء، ويتمنون عودتي.

ظهرت صورة الحارس على الشاشة، كان وجهه مختفياً كما رأيته أول مرة وكان يكبر تدريجياً حتى ملأها كلها. سر هذا الحارس يحيرني. لماذا يريد أن يخفي وجهه عني حتى بعد الانتصار؟ لاأرى من وجهه الدائري إلا فماً واسعاً وحاجبين أشقرين مقوسين.

لم يكن بإمكاني تحريك رأسي لأرى هل نوارة خلفي؟ كما لم يتأكد لي أكانت صورة الحارس التي تملأ الشاشة حقيقة أم أنها إنعكاس قبيح؟.

تحركت شفتاه العملاقتان:

- أيها المذنب ستمكث مع الماضي بعض الوقت. ساعات قليلة حتى مطلع الفجر. الماضي ليس مخلوقاً تعيساً كما تظن. إنه شريط مفيد من حياتك يجب أن تعود إلى لحظاته من تلقاء نفسك ستكون في سباق محموم مع الوقت. هي فرصتك الأخيرة. الفرصة الذهبية البراقة بين يديك.

حياتك أصبحت رهينتي أشرحها أمامك. وأنت على هذا الكرسي مجرد جثة هامدة تحركها المعجزة. روحك تحت رحمتي أشكل تفاصيلها الخاصة، وأنبش أيامها، وأكشف عورة لحظاتها على الشاشة. تحمل المؤلم منها لأنك لا تستطيع التخلص منها، ومن وجعها. أمامنا ساعات قليلة قبل أن تنتهي الليلة المقدسة فلنقتنصها كما ينبغي لكي نصنع منها تذكاراً خالداً.

تختفي صورة الحارس بعد أن ينفث من فمه دخاناً خفيفاً يهيمن على جو المكـان ، ويحفظ الرؤية صالحة حول الشاشة. سيبدأ كرنفال جديد، كرنفال بصري يبدو أنه سيكون فريداً من نوعه.

أحس بأصابع نوارة الطويلة وهي تمسد كتفي. حسناً إنها خلفي وهذا وحده كفيل بجعل الساعات القليلة القادمة أقل توتراً.



المحاكمة

خرج الحارس المجهول من الشاشة وكان ذلك إجراءً طبيعياً جداً لم تحتج عليه نوارة. وقف قبالة الشاشة في منتصف المسافة بيننا. شبك يديه خلف ظهره وظل يحركهما بعصبية واضحة، وأخيراً قال لنوارة:

ـ هل نبدأ؟

وأجابت باعتداد:

ـ أسمعنا تفاهاتك؟

نكس رأسه ثم بدأ حديثه:

- أيهـا المحلفـون. أهديكم الذبيحة، حبيب نوارة، واعذروني إن تجاهلت لعابكم طويلاً. هو الضحية التي لاتستحق شفقتكم ولا تستأهل الرحمة من عدالتكم.

تحتج نوارة بشدة:

- ماهذه الخزعبلات التي تتفوه بها أيها الحارس المخادع.

وأنتم أيهـا المحلفون الوقورون، ليس هناك ضحية ذبيحة في هذا المكان الطاهر. هذا الصغير فلذة كبدي الذي لم تنبته أحشائي. مخلوق بريء ذنبه الوحيد أنه وفيّ أكثر من اللازم لذكرياته البعيدة، ولشخصياتها المتنوعة.

قاطعها الحارس:

- سأريكم أيهـا المحلفون المختبئون في مكان ما من هذه المملكة المزعومة مشاهد شتى للضحية من مختلف سنوات عمره الفائتة. سأبعث على الشاشة مشاهد مروعة من حياته الشخصية وحوادث ساهمت في خلق عزلته. سنبدأ من الطفولة وسننتهي إلى المرأة، فأرجو أن تحبسوا أنفساكم لتناقضاته وإخفاقه المرير.

كنت خائفـاً من نبرة الحارس الواثقة، ومن سطوة المحلفين، ومن اهتـزاز الإطار الأسود. كانت نوارة تعصر ذاكرتها البرونزية وتبحث في دهاليزها عن كلمات فضية تتألق في هذه المحاكمة الصورية. نقبت الماضي واستجوبت أحداثه، ولم تجد ما يعينها على الدفاع، فصمتت.

تابع الحارس:

- المرأة هي نقطة ضعف الضحية. لقد لعبت دوراً كبيراً في حياته، سلباً أكثر منه إيجاباً. مراراً سحقت قلبه بسبب أوهام سخيفة. وأحياناً عديدة تجاوز عن طعنات قاتلة في كرامته. ودائماً كان ضعيف الجأش أمام مكر النساء وخبثهن رغم أنه كان يستشف في بعض الأحيان نياتهن.

هذا الآدمي لايعرف ماذا يريد من المرأة. تارة يفكر في الانتقام منها والتلذذ بسحق كرامتهـا، وتارة أخرى يقرر أن يكون دون جوان عصره فيعجز، ومرة يفكر في المرأة الحلم التي تسمع شكواه وهمومه، ودائماً يدعي أنـه يبحث عن امـرأة نموذجية تجمع كل تلك الخرافات التي تعبق بها مخيلته المريضة. وإذا سمحت لي عدالتكم الموقرة سأستعرض قليلاً من الأمثلة الكثيرة التي تدمغ حجتي.

تتقدم نوارة من الحارس حتى تقف معه في خط واحد وتبدأ مرافعتها المرتقبة:

ـ مهلاً أيها المحلفون الأغبياء، رويدك أيها الحارس المغفل.. أمامكم أميري الصغير، شخصية إنسانية عانت الكثير من حرمان وإحباط الحياة، شخصيـة رغم هول حرمانها لم تستسلم وواصلت حياتها لتغدو أفضل حالاً. أمـيري الصغير مخلوق مسالم يلجأ إلى الكتابة عندما يحس بأن الحياة تنكل به وتضيق عليه كل الدروب. وحده القلم سلاحه الفتاك ضد عاديـات الزمن. والآن بعـد أن أماط الحارس البغيض اللثام عن وجهه القبيـح لن أقف مكتـوفة الأيدي، أرى هذا الصغير وهو يتألم ثانية من الماضي الذي ستعرضونه على شاشتكم، لقد انتصرتم أخيراً ولم يعد هناك ما يمنعني من إبرام صفقة ترضي جميع الأطراف.

وتصمت نوارة. كل شيء في المكان خضع لصمتها ابتداءً من الحارس الذي هدأت ثورتـه وحتى المحلفـين المحنـطين ومروراً بالشاشة الناطقة وانتهاءً بي.

يا للكارثة. أنت على وشك أن تعقدي صفقة مشبوهة مع الحارس المعتـد بمحلفـين لاوجـود لهم. أرجـوك أن تتراجعي عن قرارك الطائش ياحبيبتي نوارة. بوسعي تحمـل المـاضي ومواصلة المغامرة وانتزاع حكم التحـامنا في جسد واحد. لاأحسبك نسيت بأنني فارس المفازة الذي لا

يهزمه.. ماضٍ أجوف، ولا ترعبه الكلمات الرنانة. تريثي يانوارة فأنت تعرفين بأن مبادلة الماضي تعني الحكم عليّ بالإعدام. تراجعي قبل فوات الأوان فأنا لا أحتمل فقدك ياسيدة اللهو المباح، اكبحي عواطفك المتهورة وثقي بقدراتي.

تتجاهلني نوارة وهي تقترب من الشاشة إلى حد ملاصقتها، ثم تسترسل في كلامها من جديد:

ـ إذا كانت هناك نقطة ضعف في حياته فهي أنا. سأعود بكم إلى لحظة شقائه الحقيقة، لحظة ابتعادي عنه، هذه اللحظة التي أردت أن أنساها وأشطبها من سجلات الحياة، ولكن يبدو أن هذه رغبة بعيدة المنال.

تتوهج الشاشة..

المكان بيت نوارة. أمي جالسة معها في عصر يوم شديد الرطوبة تشاركها شرب القهوة. نوارة في أشد حالاتها العصبية وأمي هادئة أكثر مما ينبغي. قالت نوارة:

ـ سمعت أنكم ستتركون الحي وتنتقلون إلى بيت جديد.

ـ قريباً إن شاء الله.

ـ وماذا عن الصغير؟

ـ أنت تقصدين ولدي؟ سيبقى معي طبعاً، مع أمه وإخوته.

تجهش نواره بالبكاء وأمي تبلع ريقاً. صاحت نوارة:

ـ ولكنك قلت بأنه ابني وبوسعي الاحتفاظ بأمومته كيفما شئت.

ـ كان ذلك في الماضي.

ـ وماذا تغير في الأمر؟

ـ أشياء كثيرة. إخوته غاضبون من احتفاظك به. أخواله أيضاً لم

يعجبهم وضع الصغير مع امرأة ليست من أهله. جدته لأبيه تعنفني في كل مرة تزورني فيها ولاتراه يلعب مع إخوته. إنها تؤلب والده علي بسببك.

ـ وماذا يقول؟

ـ كعادته يترك الأسئلة تحرقنا ويرحل.

ـ لا لن أترككم تنتزعون صغيري مني. يكفي أن الجيش أخذ فلذة كبدي الوحيد. اتركوا الصغير وإلا سأهرب معه إلى بلادي الساحلية.

تنهض أمي مسرعة، وخائفة من ثورة نوارة المتأججة كالبركان. كادت تقع على وجهها عندما اشتبكت رجلها في العباءة. تبقى اللقطة مكبرة على وجه نوارة المنتفخ من البكاء.

تواصل نوارة منكسرة:

كانت تلك أتعس لحظات عمري عندما اكتشفت أن العهود والمواثيق إنما هي مسكنات لحظية لمؤامرات تحاك في الخفاء. كانوا يأخذون صغيري عني ويخفونه في بيت جده لأمه. شغلوه مؤقتاً بالهدايا التافهة وأقفاص الأرانب والحمام. استغلوا براءته وظلوا يلونون صوراً باهتة لنوارة أخرى مشوهة.

تتوهج الشاشة..

« نوارة تطرق بيتنا بعد عودتها من زيارة أقاربها خارج العاصمة. لايجيبها أحد. تعاود الكرة ولم يفتح أحد الباب. تضرب بجنون حتى تخرج إحدى الجارات منزعجة. هرعت إليها نوارة وهزتها بعنف:

ـ ماذا حدث للجماعة؟

ـ اتركيهم في حال سبيلهم، لقد انتقلوا بسببك.

دفعت المرأة العجوز على الأرض وتركتها تتألم. هرعت إلى حينا الجديد هائمة على وجهها لاتعرف العنوان. ظلت تطرق البيوت مستغلة حدسها الخاص تسأل عن القاطنين الجدد حتى وجدت بيتنا.

دخلت غاضبة وكان في استقبالها أخي الأكبر وأمي تحتمي خلفه:
ـ أين صغيري؟
أجابها أخي بعجرفة:
ـ ألم يقولوا لك بأنه هرب من الجيش؟
ـ أنا لا أكلمك أيها العربيد.
تدخلت أمي:
ـ اسمعي يانوارة لقد كبر الولد وعاد غير ذلك الصغير الذي كنت تأخذينه في حضنك وقت ماتشائين. كل العائلة لا ترغب في أن يتعلق بك أكثر من ذلك. إنــه نائم الآن بعد بكاء استمر طوال اليوم. لقد أخبرناه بأنك توفيت في حادث غرق. إذا كنت تحبينه فعلاً اتركيه وشأنه وإلا سببت له صدمة لايفيق منها طوال حياته.
تتهالك نوارة على الأرض. تحاول أمي مساعدتها إلا أنها تنفر منها وتخرج من البيت مطلقة صرخة مدوية».
تتكلم نوارة في تأثر:
ـ كنت في حيرة شديدة بين حبي لصغيري وخوفي عليه من مفاجأة رؤيتي على قيد الحياة. في تلك الليلة همت على وجهي حتى فقدت الوعي.
تتوهج الشاشة..
«تستعيد نوارة وعيها أخيراً. كان ذلك عند الفجر عندما وجدت نفسها في منزل غريب وبقربها يجلس رجل وقور تراه للمرة الأولى في حياتها. كانت متمددة في بطانية تستر جسدها بالكامل وبقربها إناء ماء بارد وبضع ثمرات من التمر المجفف في طبق صغير.
ـ من أنت؟
ـ رجل على هامش الحياة، وأنت؟
ـ امرأة يمقتها الزمان.

تفحصت نوارة جسدها بدقة فوجدته سليماً لم تمسه بصمات نجسة. شكرت الرجل كثيراً وخرجت من بيته وهي تحمل معنوياتها في كيس. تتوقف اللقطة عند اصطدامها لحظة الخروج بمجموعة من النسوة الذاهبات لشراء الحليب. كن جميعهن ينطقن هلعات بلسان واحد.

ـ ماذا تفعل نوارة في منزل رجل أعزب عند الفجر؟

تواصل نوارة الحكاية بألم:

ـ كانت فرصة على طبق من ذهب جاءت لتبعد عني الصغير أكثر فأكثر كانت هذه الشائعة فتيلاً لشائعات أكبر وحكايات أشنع. جسدي العفيف كان علكة بين ألسنتهم. كنت أتسلل كل مساء متخفية أراقب صغيري وهو جالس عند دكة البيت الجديد يعاف ألعابه الكثيرة ويفكر في غيابي. وكنت لا أستطيع مفاجأته بهداياي.

تناسلت الإشاعات ولم يحتمل زوجي بشاعتها فرحلت معه مرغمة إلى «الرفاع» وأصبحت إنسانة جديدة تماماً. كنت خائفة على صغيري الذي رفعت عنه الحماية. تركته وهو غض لايدبر أموره مع نفسه ومحيطه. تركته بدون أم، بدون حنان.

تتوهج الشاشة..

«أخي الأكبر يأتي إلى بيتنا ذات ليلة ويجلس يتحدث مع أمي هرباً من سطوة زوجته الأجنبية. ثرثر كثيراً في شئونه الخاصة واستعرض مشاكله ثم قطع كل ذلك فجأة ليقول:

ـ هل تذكرين نوارة يا أمي؟

ـ ومتى نسيتها؟

ـ سمعت بأنهم أرسلوها إلى بلادها الساحلية بعد أن تعاظم فحشها.

كنت منزوياً في الغرفة الأخرى يفتتني الخبر/الزلزال. وجود نوارة على قيد الحياة وطعنها في شرفها».

تبكي نوارة وهي تقول:

ـ منذ تلك اللحظة القاتلة وصغيري طعن في قلبه، في كرامته، في شرفه الذي كان يدافع عنه طويلاً مع الفتيات اللاتي خاض معهن تجاربه العاطفية العديدة، والفاشلة. أصبح الصدق ومضات شحيحة في حياته. لم يكن بيدي أن أمنع هذه المصيبة عن صغيري:

كنت ضعيفة ومستهدفة ولا أقدر على جمع شتات نفسي. كنت أراه وهو يتمزق، وهو يتفتت، وكنت أشعر بالأسى وأنا ألملم شظاياه من خلفه. منذ تلك اللحظة وهو في رحلة مضنية ليجمع شمل طمأنينته. يستكشف وعورة الطريق بنفسه.

أيها المحلفون الأغبياء أطلب منكم الرأفة نيابة عن الضحية المسكينة. سأنفذ عوضاً عنه أي قصاص تجدونه مناسباً. كلي فداء للملك الصغير. انزعوا عنه لعنة الأيام واستبدلوا بها غطاءً من الطمأنينة. لقد أثقلت كاهله سنوات التعب وبات جثة هامدة ترحب بالطعنات الجديدة.

أيها المحلفون..

يا زمرة الأشرار الأشقياء..

يا صائدي النفوس الضعيفة..

أيها المحلفون الطغاة..

هذي روحي أسلمها بين يديكم قرباناً لهذا الصغير فامنحوه بركتكم الأبدية المزيفة، واتركوه في شأنه يرعى حشائش السعادة. أعطوه الهناء الذي ظل ينشده في أمل لقائي.

إذا كان لقائي تعويذة لا تطرد لعنة الشر عن حياته فأنا أتنازل عن هذا الحق الذي ظللت محرومة منه. اسبغوا على هذا الفتى عطايا المحبة

وأرشدوه إلى طريق الرضا حتى لا يضل ويجد نفسه في مواجهة سياف جائر.

أيها المحلفون..

تداولوا فيما بينكم وأعطوني قراركم البعيد عن مبالغات الحارس وعصبيته الاعتباطية. لا تهدروا ثلاثين عاماً من عمر الفتى بقرار متسرع. لتكن تضحياتي النفيسة معيناً لكم على الرأفة.

أيها المحلفون..

إنه قراركم التاريخي وأنا بانتظار الحكم بعد المداولة.

جلست نوارة على الأرض وكأن تعب الدنيا قد حط على دماغها. رأيتها واهنة وشعرها يغزوه الشيب دفعة واحدة. لقد أنهكتها المحاكمة وباتت كأنها شبح عاجز. ألصق الحارس أذنه اليسرى بالشاشة وكأنه يسترق السمع.

ما بال هذه المداولة هادئة، وطويلة، ومريبة. هيا أيها المحلفون اقذفوا حكمكم قبل أن تفنى نوارة، فأنا أراها تتحول إلى هيكل عظمي مخيف ولا أستطيع عمل شيء. كأن قوة خفية تثبتني على كرسي المملكة تمنعني من التدخل في سياق الأحداث. نوارة في وضع مزرٍ. نوارة تعزف لحن الرحيل النشاز. نوارة تعزف لحن التضحية الذي لم يتقنه أحد من أحبابي حتى تجلب السعادة لقلبي.

بدأت أقلق...

عاد الدخان ينتشر في المكان. ونوارة لا تفعل شيئاً حيال هذا الهجوم القادم بضراوة. أين سلطاتك الأسطورية يا إمبراطورة الرهبة؟ أين هيمنتك يا ملكة الليل والحطام؟ لماذا تتركينه يلتهم جسدك النحيل؟ ولماذا تطالعينني بابتسامة ظفر ورضا؟ سمعت صوتاً خافتاً يناديني:

ـ قم أيها الصغير عن هذا العرش. لقد منحناك قلباً طرياً، مسخنا فيه نافذة التعاسة. ستخرج من هذه الليلة المقدسة كما ولدتك أمك، بذاكرة جديدة اقتلعنا من ردهاتها ذكريات نوارة.

باغتني الحارس وهو يقتلعني بيديه الخشبيتين من الكرسي الذي حاولتِ عبثاً التشبث بقوائمه. كان عنيفاً وقاسياً في تنفيذ قرار ترحيلي خارج المملكة التي توجت على حكمها منذ لحظات. كأنه كان ينتقم من هزيمته المنكرة على يد نوارة في المحاكمة.

نوارة.. أراهم يأخذونك من بين يدي.

نوارة.. أنا الفارس الذي منحك الوعد الثلاثي المميت، وأنا الذي نكس أعلام مغارة الماء فلماذا لا أقدر على استردادك من قبضة المحلفين المحتالين؟

نوارة.. لقد قيدوني فاعذريني على ضعفي. أتوسل إليك أن تعودي. أنا لا أريد شيئاً من هذه المملكة إلا قلبك لا أريد الذهب، والمال، والجاه، لا أكترث بماضيك وإشاعاته المهينة: أريد أن أعود إليك ونتوحد كما الماضي مع أحاسيسنا البكر.

.. نوارة تراجعي ولا تخشي قسوة الماضي وأخطاءه. سأطهرك بنفسي من هفواتك ونخرج معاً روحين جديدتين ينعشهما الأمل.

نوارة.. لقد أخطأت تخميناتك هذه المرة. ما كان ينبغي أن تنجر في وراء شائعات الحارس. لن أتضرر من ماضيك الذي لا يعني شيئاً لقلبي. هذا الهراء من تلفيق الأشرار الملاعين.

نوارة.. يجب أن تفعلي شيئاً قبل أن يقول القدر كلمته الأخيرة ويأمر بأن لا نلتقي.

ولم تنطق نوارة. قذفني الحارس اللعين على سريري في بيت العائلة

وابتعد حتى السقف قبل أن أدخل معه في شجار. تركني في حالة يرثى لها. ظل فترة ليست بالقصيرة يراقب تقطع صحوي ويستهزىء بضعفي.

كان ذلك على أعتاب الصباح عندما قذف الحارس البغيض في وجهي قناعه القبيح. هذه الملامح أتذكرها. إنه ابن نوارة الذي هرب من الجيش. ها قد عاد ليسترد نوارة من قبضتي. ها قد عاد ليدمر حياة نوارة كما كان يفعل في الماضي.

ضحكته الظافرة لم تفقدني ذكرى الليلةِ المقدسة كما قرر المحلفون الأغبياء. تمكنت من رؤية صورة نوارة الباهتة خلف قضبان من أياد بشرية.

... نوارة هذا الحلم الذي لا يزال يؤرقني.

صباح ناحل
والباب نصف موارب
والساحلية... لا تجيء

عبد المحسن يوسف
السعودية